إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معتَّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

ABU ABDO ALBAGL

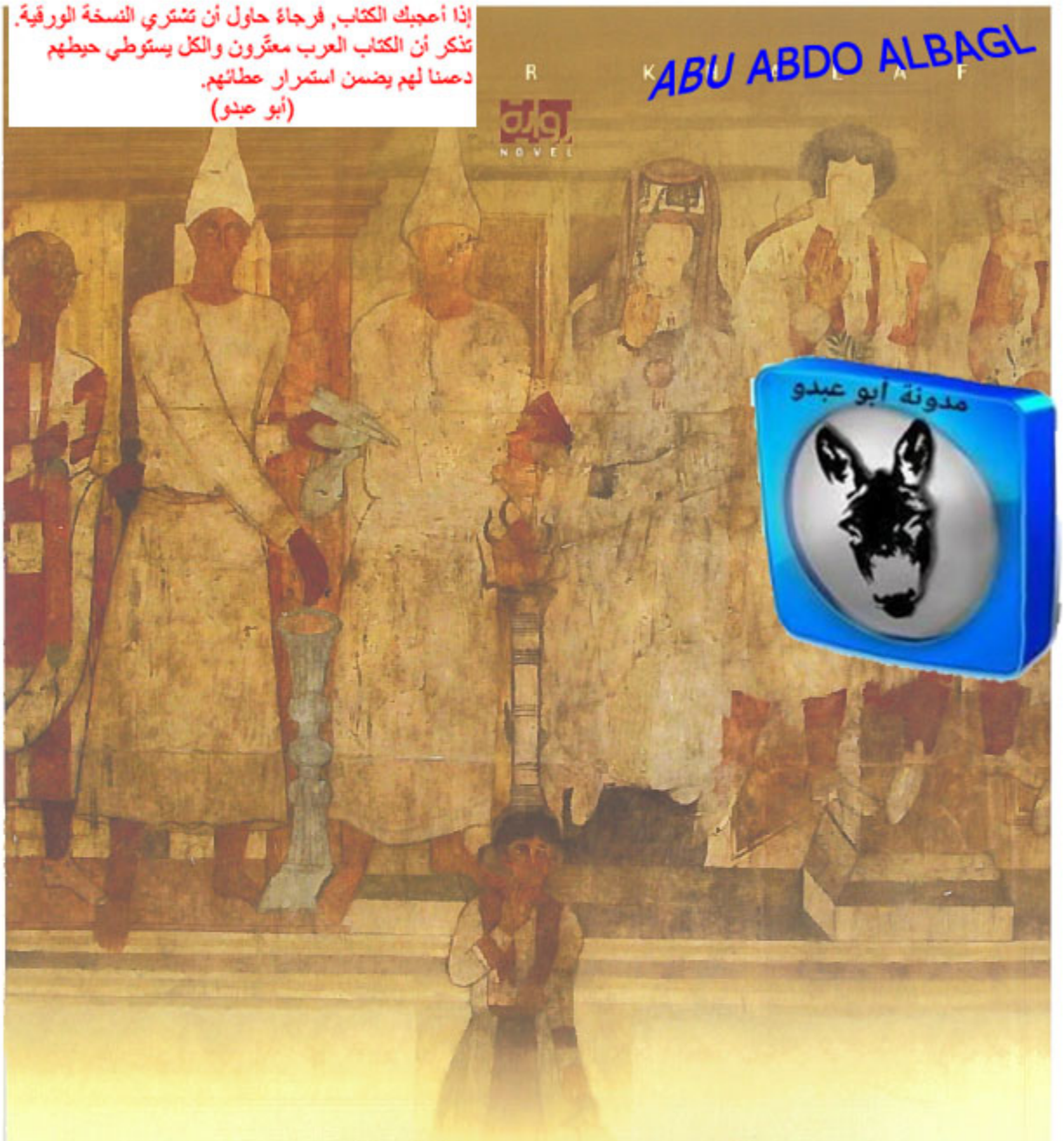

تيسير خلف

مذبحة الفلاسفة

مذبحة الفلاسفة

5685

مذبحة الفلاسفة / رواية عربيّة
تيسير خلف / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى، 2016
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 11-5460، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: جدارية ذبيحة قونون، معبد الآلهة التدمريّة في دورا، أوروبس، 250 م/ سوريّة
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-643-4

رواية
NOVEL

تيسير خلف

مذبحة الفلاسفة

أحداث قرن

أردشير ينهي سلالة البارثيّين ، ويتسلّم حكم بلاد فارس ٢٢٤م
سقوط مملكة كرك سباسينو (ميسان) على يد أردشير ٢٢٦م
تدمير وحرق موانىء ومدن الخليج ، على يد أردشير ٢٣٠م
وفاة أردشير وتسلُّم شابور ، وسقوط مملكة الحضر ٢٤١م
سقوط مدينة دورا أوروبس ، على يد شابور ٢٥٦م
معركة الرُّها ، وأسر فالريان ٢٥٩م
اغتيال أذينة ، وتولِّي معن ٢٦٧م
اغتيال معن ، وتولِّي وهب اللات ووالدته زنوبيا ٢٦٨م
اغتيال غالينوس ، وتولِّي كلاوديوس ٢٦٨م
موت كلاوديوس ، وتولِّي أورليانوس ، ووفاة أفلوطين ٢٧٠م
سقوط تدمر ، وإعدام لونجينوس والفلاسفة ٢٧٣م

قد يعرف العارف غيره ، وقد يعرف ذاته ، أيضًا ؛ فيكون بذلك واحدا .

في الحالة الأولى ، يريد العارف أن يعرف ذاته ، أيضًا ، ولكنه عاجز عن نيل مراده ؛ فإن ما يشاهده إنَّما هو حاضر بين يديه ، ولكنه شيء يختلف عنه . أمَّا في الحالة الثانية ، فإن العارف يكون متحداً بذاته ، فيصبح ذا طرفين ، مع كونه واحدًا ، ولو لم يكن واحدًا لأصبح العارف شيئًا ، والمعروف شيئًا آخر . فلم يعد العارف ، آنذاك ، عارفًا ، فإنه ما دام يتلقّى العرفان عن غيره ، لا يكون العارف ، أصلًا .

المعلم أفلوطين

قصر تيبور

اختار إمبراطور روما ، أورليانوس ، أن يسجننا : الملكة زنوبيا ، وأبناءها وبناتها ، وحاشيتها ، وأنا كبير كهنة تدمر ، حنبل بن جرم اللات ، في أحد القصور الثلاثين التي تشكّل المجمع الإمبراطوري الكبير المسمّى : «فيلاّ هدريانا» ، وسط مروج تيبور الخُضْر ، وقرب غابات صنوبرٍ ، تكلّل السفوح الخفيضة ، على مدّ البصر ، شرقي العاصمة روما بثمانية عشر ميلاً .

كنت أتساءل ، منذ أن وطئت أقدامنا المكان ، عن سبب سجننا في هذا القصر البهيج ، الذي يصلح لاستجمام الملوك ، لا لسجنهم ، فلم أحظ بجوابٍ شافٍ ، إلى أن قرأت ذات مرة ، وأنا أتجوَّل في ردهات الحديقة ، على لوحة منقوشة بالكتابتين اللاتينية والتدمرية ، أنَّ من بنى هذا القصر على نفقته الشخصية ، قبل أكثر من مئة وخمسين عاماً ، هو رئيس مجلس شيوخ تدمر الهدريانية ، بونا بن خيران ، تقديراً وامتناناً لكل ما فعله الإمبراطور الصالح هادريانوس ؛ من أجل تدمر وشعبها!

أنسانا جمال القصر وطابعه التدمري الخالص ؛ دخولَنا قبل أيام إلى روما مقيَّدين بالسلاسل ، على عربتين ذهبيّتين ، إحداهما كانت للملكنا المأسوف عليه ، أذينة ؛ والأخرى لملكتنا ، زنوبيا ؛ لم ينته الصُّناع منها ، إلاّ قبيل الحرب ، بأيّام قلائل ، وكانوا قد زيّنوها بالجواهر ، ورسوم الآلهة ؛ لكي تدخل بها إلى العاصمة دخول الفاتحين ، حين تهزم أورليانوس!

ولكن ، يا لسخرية الأقدار ؛ فقد دَخَلَت روما ، مقيَّدة بسلاسل الذهب ، في مقدّمة أسارى الحرب ؛ خلف موكب الإمبراطور الذي تقدَّمه مئات المجالدين المتباهين بعضلاتهم ، وعشرات الفيلة ، والأسود ، والنمور ، والفهود التي اصطادها جنوده ، أو غنموها من قصور تدمر ، وسط هرجٍ ومرجٍ ، وهتافاتٍ لا تنقطع ، تمجِّد مُعيد الشرق!

في الفترة الأولى ؛ لم يكن مسموحاً لنا بمغادرة قصر ابن خيران ، إلاَّ بعد الحصول على إذن من حرَّاس يسهرون على مراقبتنا ، وإحصاء خطواتنا ، ولكن ؛ وبعد شهور قلائل ، حين سمعنا عن القصص المرعبة التي تحتفظ بها جدران القصور الشاهقة ، أدركنا سبب سجننا هنا مع روح هدريانوس المجنونة! وعرفنا لماذا سمح الحراس لنا بالتجوَّل في حدائق وأروقة الفيلاّ ، وبتأمل بركتها المستطيلة الواسعة ، المحاطة بتماثيل آلهة الأولمب ، المصفوفة بعناية إلى جانب آلهة الفراعنة ، فعلى ضفة هذه البركة ؛ تحدث قصة مرعبة ، تتكرر في الليالي المقمرة ، منذ

مائة وأربعين عاماً ، ومن دون توقف!

لقد أراد الإمبراطور ، هدريانوس ، كما قيل لنا ، أن يكون هذا المنتجع مدينة فاضلة ، فيها نماذج مصغَّرة من أكاديمية أفلاطون ، ولوفيون أرسطو ، واستوا زينون ، بل قيل ، إنه أمضى فيه أعوامه الأخيرة ، محاولاً أن يطبق قوانين أفلاطونوبوليس ، على نفسه وعلى حاشيته وأصدقائه ، قدر ما يستطيع! ولكن مرضاً غامضًا قهره ، واستحوذت على عقله الوساوس السُّود ، وجعلته يرتاب حتى في أصدقائه القدامى ، ويظنهم يدبرون المكائد ليقتلوه ويجلسوا على العرش بعده ، إلى أن وصل جنون ارتيابه لأن يصدر قرارًا يقضي بإعدام جماعة منهم ، قبل أن تفتك به الآلام المبرّحة ، وتطوَّح بعقله في مهاوٍ سحيقة ، قادته إلى تمني الموت والسعي إليه ، أكثر من سعيه لنيل الشفاء!

كانت روح هدريان المعذَّبة تطوف ليلاً في جنبات المكان ، وتظهر للكثيرين وهي تصيح وتتألم ، وقد رآها الكثيرون ، وأنا واحد منهم ، تنتحب قرب البركة ، تستعطف الآلهة بأن يخلصوها من آلامها ، وهي تردد أبيات قصيدة حفظها كل من أقام في هذا المكان :

– أيا نفسي ، أيا نفسي الجميلة ،

أيا نفسي الخفاقة ،

أيا شريكة جسمي الطيني وضيفته ،

إلى أين أنت مسرعة ، أيتها النفس الشاحبة العارية؟

إلى حيث لا تعودين ،

إلى حيث لا تعودين .

لقد أدركت الملكة ، كما أدركنا جميعًا ، بعد برهة من مكوثنا في هذا القصر ، أن هدف أورليانوس اللئيم من سجننا في هذا المكان الملعون ، هو أن تحل في ملكتنا روح هدريانوس السجينة بين جدران فيلّا هدريانا ، وأن تقودها إلى الألم والجنون! ولذلك حاولت الملكة التحدي واستعادة الأمل ، قدر ما تستطيع ، وشرعت في وضع أطروحة فلسفية حول التربية الأفلاطونيّة . ولكن روحها المكلومة لم تقاوم أكثر من ذلك ، فسرعان ما سيطرت عليها الوساوس السُّود ، وحل بجسدها مرض لعين أقض مضجعها ، وانتابتها آلام لا طاقة لبشري على احتمالها ، فماتت وهي تنزف الدم من أنفها وفمها ، بعد عام ونصف العام ، من الإقامة في القصر الملعون ، لم تحاول ، مرة واحدة ، مغادرته ، أو أن تسترق نظرة خاطفة إلى العالم البهيج ، المخادع ، الذي يحيط به من كل حدب وصوب!

كان مرض الملكة الغامض وموتها حدثًا جللاً ، بالكاد استطعنا احتماله ، وبصعوبة بالغة قَويتُ ، أنا حنبل ، على إقامة طقوس الدفن ، في حديقة القصر ، بحضور أبنائها الثلاثة ، وبناتها الثلاث ، ومن تبقّى من الحاشية .

لقد خاضت ملكتنا البارّة زنوبيا ابنة زباي بن مالك ، حربها مع أورليانوس بكل شرف وإقدام ، على عكس ما فعل

هو ، إذ ، لم يترك خديعة أو خيانة إلاّ ولجأ إليها ، بدءاً من التظاهر بأنه أقرَّ بقرارات غالينوس وكلاوديوس بشأن استقلال امبراطورية المشرق ، مروراً بحياكة الدسائس مع جذيمة الشرير وقبائل البدو ، وانتهاءً بسجننا في هذا المكان الملعون الذي أفضى إلى موت الملكة ميتة مروِّعة تقطّع نياط القلب!

والآن ، وبعد هذه السنوات ، ومن موقعي السابق القريب من الملكة ، أعلن أنها لم تكن ترغب بالحرب ، ولم تسع إليها . فعندما جمعت الجيش على عجل وخاضت المعركة الأولى ، ثم الثانية ، مع جيوش الرومان الملتئمة من غاليا ، وداسيا ، وتراقيا ، تساندها قوات جذيمة الشرير ، في السهل العميق ، قربَ أَنطاكيا ، ثم في سهل حمص الغربي ، كانت تدافع عن مملكة الفضيلة المهددة بالسحق والزوال ، وحتى حين استسلمت ، بعد أن انكسر السيف بيدها وهي تدافع عن نفسها أمام بوابة القصر الملكي ، استسلمت وهي شامخة الرأس .

كانت المعركة الأخيرة ، داخل أسوار تدمر ، طاحنةً ، بذَل فيها الخصمان آخر ما اختزناه من قوّة ، فقُتل أغلب الجنود ، ونجا قادة العدو ، والقليل من الحرَّاس الشخصيّين . لكنَّ أغرب ما في الحكاية ، كما روى كثيرون بعد أن أُخِذنا من المدينة مخفورين ، أنَّ المتقاتلين ، حين سقطوا منهكين ، وهلكت أجسادهم ، واصلت أرواحهم القتال ، لثلاثة أيام بلياليها .

وقـد رأى هؤلاء ، وسـمـعـوا تلك الأرواح المُجَنَّدةُ ، وهي تتقارع بسلاحها الكامل! ولا يزال الكثير منها يظهر بين الفينة والأخرى ، إلى يومنا هذا ، في السنة الثالثة لقسطنطينوس ، ولا يقلّ بأسها ، في القتال ، عن بأس الجنود أنفسهم الذين خاضوا تلك المعركة ، بكلِّ شجاعة وبسالة ، قبل عقود ثلاثة خلت .

ويقـول هؤلاء ، وهم من التـدمـريّين الموثوقين الذين لم ينقطعوا عن مدينتهم ، حتى بعد دمارها ، إنهم يشاهدون بين الخرائب ، في ليالي الصيف ، حين يرتفع القمر إلى كبد السماء ، أرواح فرسان على حُصُنهم يكرّون ، ويغير بعضُهم على بعض ، وتصدر عن غاراتهم أصوات صاخبة ، يمكن سماعها من مسافات بعيدة!

أما أنا ، حنبل بن جرم اللات ، فكان المنظر الأخير الذي انطبع في ذاكرتي ، وأنا أغادر مدينتي الحبيبة ، مقيَّدًا بالسلاسل قبيل الغروب ، على متن عربة الأسرى التي جمعتني بمجلس الحكماء ؛ تلك السحابة الرمادية المصفرَّة التي تجمَّعت في سماء المدينة ، وثمالات الحرائق ، وأعمدة الدخان الرفيعة المبثوثة ، في كلِّ مكان ، وأسقف القرميد المهدَّمة ، في المعبد الكبير ، والنار الكبرى التي لم تنطفىء ، في القصر الملكيّ ، وبين كلِّ ذلك أسراب التدمريّين الهائمين على وجوههم ؛ فرارًا إلى جهات الأرض الأربع!

هو الكَدَرُ الموعود ؛ إذن ، والبلاء الأعظم الذي طالما حذَّرَنا

معلمي قصيٌّ منه ، في العامين الأخيرين ، ودعانا للاستعداد له ؛ لأنه آتٍ ، لا محالة ، من دون أن يخبرنا كيف يكون ذلك الاستعداد؟!

وطوال رحلة الطريق المضنية إلى حمص ، كنت أسأل نفسي : ماذا كنّا سنفعل ، حتى لو رأينا مصيرنا الذي نعيشه ، هذه اللحظة ، رأيَ العيان؟ هل كنّا لنواصل ما عزمنا عليه؟ أم ننكفىء ، ونبحث لنا عن مصير آخر؟!

وأذكر أنني حاولت أن أطرح السؤال على المعلم لونجينوس ، أو على بوسانياس ، أو نيوكوماخوس ، ولكنني لم أستطع ، لم تخرج الكلمات من فمي ، ولم أكن أتوقّع أن أحصل على إجابة من أحدهم ، وحتى لو حصلت على إجابة بالسلب ، أو بالإيجاب ؛ فما الفائدة من ذلك؟! ما جرى قد جرى ، وحسبنا منه ما كان!

في حمص ، نصب أورليانوس لنا محكمة ، في ساحة معبد إله الشمس الكبير ، جلس هو على كرسيِّها ، وإلى جانبيه وقف الجلّادون ، حاملين رزمهم ، أما نحن ، فوقفنا ، جميعًا : الملكة وأبناؤها ، والمعلم ، لونجينوس ، وباقي أعضاء مجلس الحكماء ، وأنا حنبل ، مقيَّدين بالسلاسل ، في قفص حديديّ كبير ، معروض للحشود التي زحفت من مختلف أحياء المدينة ؛ لرؤيتنا .

يومها قال أورليانوس ، مخاطبًا الملكة :

– خنت روما .

فردّت الملكة :

– روما هي التي خانتني .

فقال أورليانوس :

– رفعت في وجه إمبراطورك السلاح .

فردّت :

– أنت أيّها الإمبراطور مَن شهرتَ السلاح ، ضدّ تدمر ، وإمبراطورها ، وهب اللات ، ونكثتَ عهود غالينوس لملك الملوك ، أذينة ، وإقرار كلاوديوس بالقسمة!

فقال :

– هل حرَّضك لونجينوس ، وهؤلاء الفلاسفة ، على ما أقدمت عليه؟

فردّت :

– لونجينوس معلِّمي ، وليس محرّضي!

فقال :

– إذن ، أنتِ تقرِّين بوقوفه وراء التمرُّد؟

فردّت :

– ليس تمرُّدًا .

فقال مخاطباً لونجينوس :

– حرّضت ، وصحبك ، على روما ، ووقفتم وراء التمرُّد .

فردّ لونجينوس :

– *روما إمبراطوريّة الشرّ ، والتعدّي .*

فقال أورليانوس :

– *هو الإقرار بالذنب ؛ إذن؟!*

فردّ لونجينوس :

– *ليس ذنبا ؛ لأقرّ به!*

فقال أورليانوس مخاطبًا أميليوس :

– *وأنت خنت بلدك .*

فردّ أميليوس :

– *بلدي هو الفضيلة ، أينما كانت .*

فقال أورليانوس :

– *ولكنك رومانيٌّ ابن رومانيّ .*

فردّ أميليوس :

– *لم أختر روما ، بل اخترت أفاميا ، ولم أختر والدي ، بل اخترت أفلوطين!*

حينها ، تلفّت أورليانوس ، يَمْنة ويَسْرة ، معلنًا انتهاء الاستجواب ، ثمّ وقف ونطق بحكمه المبرم :

– *بموجب التفويض الممنوح لي ، من إله الشمس ، أحكم أنا إمبراطور روما ، لوسيوس دوميتيوس أورليانوس أغسطس ، على كلٍّ من : كاسيوس لونجينوس الحمصيّ ، وجنتليانوس أميليوس الأثرويّ ، وبوسانياس الدمشقيّ ، وكليكراتس الصوريّ ، ونيوكوماخوس الجراسيّ ، وفيليب السيثوبوليتيّ ،*

عقاب اللصوص والسُّرّاق ، وأعفو عن حياة الملكة ، زنوبيا ، وابنها القاصر ، وهب اللاتوس ، وعن كاهن تدمر الأكبر ، أنيابالوس جيراموس .

وفور سماع الحكم صاحت الملكة ، محتجّة :

– *هذا ظلم ، اصلبونا معهم ، لا ذنب لهم ، أنا الملكة ، وصاحبة القرار الأوّل والأخير!*

لم يول إمبراطور روما أدنى اهتمام لاحتجاج الملكة ، وحاولت قلّة من الحاضرين الهتاف له ، وهو يغادر ، غير أن الأكثريّة الحزينة زجرتهم .

كانت مذبحة للفلاسفة إذن ، أراد أورليانوس أن تصل أصداؤها إلى أقصى أطراف الإمبراطورية لغاية في نفسه! والحق ، أنني ، وحتى هذه اللحظة ، بعد السنوات التي زادت على الثلاثين من وقوع تلك المأساة ، لم أدرك السرَّ الذي وقف وراء ذلك الحدث غير المسبوق ، ولم أفهم لماذا وقعت تلك المذبحة المروِّعة ، وما الذي دفع الإمبراطور لاقتراف ذلك الفعل الشائن الشنيع بحق فلاسفة سلاحهم الكلام ، والكلام فقط؟!

وحتى اليوم ، يوم كتابتي لهذه السطور ، لا تزال ذكرى تلك الصلبان الخشبيّة الكبيرة الممدّدة على الأرض ، قرب منصّة المحكمة ، تلحُّ على ذاكرتي كل لحظة ، ولا تزال صورة الجلّادين ، وهم يطرحون المعلِّمَ لونجينوس ورفاقه عليها ، بكلّ قسوة ، حاضرة في مخيّلتي ، تمنعني من الخلود إلى نوم عميق مريح ،

ولا تزال تلك النظرة التي استرقتُها للمعلم ، وهم يثبّتون يديه ورجليه ، على الصليب ، بالمسامير ، ويرفعونه إلى الأعلى ، وهو يداري آلامه ، تلاحقني أينما حللت .

والحق ؛ أن سلوتي الوحيدة ، طوال مدة إقامتي في قصر ابن خيران ، كانت تلك المراسلات مع صديقي القديم مالكوس البتانيّ ، الشهير باسم بورفيريوس الصوري ، والذي لم يتوقف عن دعوتي يوماً للقدوم إلى روما ، ولكنني كنت دائماً ، أُذكِّره بأننا ممنوعون من السفر ، وأن علينا انتظار عفو ما!

وحين أتت الأخبار باغتيال الإمبراطور ، أورليانوس ، على يد ضبّاط من الحرس الإمبراطوريّ ، في تراقيا ، أرسل مالكوس لي رسالة كتب فيها :

– *صديقي أنيبالوس ، أمورك الآن طيّبة ، فالشيخ الفاضل ، تاستس ، من جماعتنا ، وقد اعتلى ، الآن ، عرش الإمبراطوريّة ، وأبلغني بعض حاشيته ، أنه أسقط الحكم الذي أصدره عليكم أورليانوس ، بالتزام الإقامة في تيبور ، وأنتم الآن أحرار ، تذهبون حيث شئتم ، أو تبقون في تيبور ، مكرّمين . أمّا أنت ، فأعرضُ عليك وظيفة محاضر في الأكاديميّة ، وأرجو أن تأتي إلينا ، في أسرع وقت ممكن .*

وفور قراءتي للرسالة ، هرعت إلى ملكنا ، وهب اللات ، وأبلغته بخبر اغتيال أورليانوس وبالقرار الامبراطوري الجديد بإطلاق سراحنا . وما هي إلاّ أيام قليلة حتى غادرنا جميعًا

«فيلا هدريانا» المرعبة ، مولّين الأدبار فراراً من لعنة الامبراطور هدريانوس ، وروحه الحبيسة الملعونة التي كادت أن تأتي علينا جميعاً ، بعد أن أتت على الملكة!

توجه وهب اللات وأشقاؤه وشقيقاته إلى فلورنسا ، حيث كانت لهم أملاك وضياع من ميراث جدهم ووالدهم ، أما أنا ، حنبل ، فقد توجهت مع زوجتي وطفلي ، إلى روما ؛ للالتحاق بعملي الجديد ، وكان لقائي الأوّل بصديقي القديم ، مالكوس ، منذ افتراقنا ، قبل سنوات طوال ، حين كنا ندرس في أكاديمية أفلاطون في أثينا ، فاستعدنا الكثير من أيّامنا الخوالي ، وأخبار معلمنا المأسوف عليه ، لونجينوس ، وحدّثته مطوّلًا عن تدمر ، في أعوامها الأخيرة ، واستفضت بالحديث عن مذبحة الفلاسفة . وفي كل مرة كنت أعيد القصة عليه ، كانت العبرات تخنقه ، والدموع تغسل مآقيه .

وكان مالكوس دائم الانهماك ، في تأليف الكتب ، والتعليق عليها ، في محاضراته التي لا تنقطع ، وقد حضَّني ، غيرَ مرَّة ، على كتابة شيء ، حول تدمر وزنوبيا ، ومشروع دولتها الفاضلة ، والمصير المأساوي الذي وصلت إليه ، وكنت متردّدًا ، غير راغب في ذلك ؛ خشيةً من استعادة تلك اللحظات السُّود التي شهدت انهيار الحلم!

ولكن ، وبعد سنوات طوال ، وكنت قد بلغت العقد السادس من عمري ، حدث أمر جعلني أعيد النظر في موقفي

السابق من الكتابة ، إذ التقيت بتاجر تدمريّ ، مِن الذين هاجروا إلى صور ، فاجأني بخبر حول صديقي ، ومعلّمي ، قصيّ ، مفاده : أنه رآه ، خلال إحدى رحلاته إلى العربيّة السعيدة ، بعد كارثة تدمر بأعوام ، وقد بنى مسجدًا في قرية ، بين يثرب ونجران ، بالقرب من نبع ماء ، وتحلّق حوله كثير من المؤمنين بكرامته . وزاد هذا التاجر الذي لم تنقطع تجارته ، حتى بعد سقوط المدينة ، بأنه رأى ، بعد سنوات من زيارته الأولى ، أنّ مدينة قصيٍّ توسَّعت ، بقدر كبير ، وكانت تشبه تدمر ، من حيث تخطيطها ، فكانت فيها سوق تشبه الأغورا ، قريبًا من المعبد الكبير ، وبالقرب من المعبد ، أيضًا ، كان هناك مجلس لحكماء المدينة أُطلق عليه اسم دار الندوة ، يشبه مجلس شيوخ تدمر ، وغير بعيد عن السوق كان ثمّة مدرَّج صغير لا يشبه كثيرًا مدرَّج تدمر ؛ أمّا البيوت فانتشرت حول المعبد ، بعد التحاق كثير من التدمريّين ، وأنباط حوران به ، وكان لكلّ قبيلة ، أو عشيرة حيٌّ خاصّ بها .

إذن ، بنى قصيٌّ مدينته الفاضلة التي حدّثني عنها ، في لقائنا الأخير ، ومضى في حلمه إلى منتهاه!

وبرغم أني لا أستطيع الذهاب إلى تلك المدينة ؛ لرؤيتها عن كثب ؛ بسبب تقدُّمي في السنّ ، ووهن جسدي ، وثقل أطرافي ، إلاَّ أن سماع هذا الخبر ، أعاد الأمل إلى نفسي المتعبة القانطة ، وحفزني على البدء بكتابة سيرة حياة هذا الرجل

الاستثنائيّ ، في كلّ شيء ، والذي غيَّر حياتي ، منذ أن التقيته ، للمرّة الأولى ، في معبد اللات ، حين كنت في مقتبل العمر ، وأرشدني إلى طريق الخلاص ، حين كنت تائهًا في الدَّياجير ، وأمدَّني بمدد روحيٍّ لا ينضب ، وودَّعني بأعجوبة لا تشبه باقي الأعاجيب!

قصيّ

كان قصيٌّ ، الأفكل[1] الذي لازمناه سنوات طوالاً ، أشبه بكائن نورانيّ يسير على الأرض . لم يخلع اللباس الأبيض ، طوال السنوات العشرين التي خدمناه فيها ، ولم يره أحد ، وهو يتناول طعامًا ، أو يشرب شرابًا .

كان طويلًا مهيبًا ، ذا طلعه بهيَّة ، برغم نحوله ، ووجه صبوح ، لا تعرف حين ينظر إليك ، إن كان باسمًا ، أم عابسًا ، ولكنك تشعر بطمأنينة كبيرة ، قلّما تشعر بمثلها أمام إنسيّ . أمّا لحيته الطويلة الكثَّة ، فكان بياضها يزداد مع تقدُّم السنين ، حتى بدا لي ، في المرَّة الأخيرة التي رأيته فيها ، داخل معتكفه بغار الجبل ، وكأنه تمثال قُدَّ من رخام أبيض .

لم يسمح قصيٌّ لمصوِّر بأن ينحت له صورة واحدة ، برغم النذور الكثيرة التي كان يباركها في معابد تدمر ، وخارجها . وكثيرًا ما حاول المصوّرون إقناعه بقبول تصويره على إحدى التَّقدِمات ، غير أنه كان يرفض رفضًا قاطعًا ؛ لأن الخلود ليس

---

(١) هو كبير الكهنة .

بصورة على الحجر ، كما كان يقول ، بل بخلود النفس في الخدور العُلى ، برفقة المصطفَيْن ، والمخلوقات النورانيّة التي تحفّ بعرش الإله .

كان يكره سفك الدماء ، ولم يره أحد ، وهو يقرّب ، أو يبارك ذبيحة دمويَّة . وكثيرًا ما نهانا ، نحن مساعديه ، عن أكل اللحم . وكان يقول لنا :

- *هل نظرتم إلى عيون الشياه ، حين تساق إلى حتفها؟ حدّقوا في عيونها جيّدًا ، وسترون أرواحًا تستغيث .*

وحين جادلته ، أنا حنبل ، في إحدى الجلسات ، حول سبب امتناعه عن أكل اللحم ، قال :

- *انظر إلى اللحم ، بعد يوم من ذبحه ، ماذا يحلُّ به؟ سيتغيَّر لونه ، ورائحته ، وستعافه النفوس ، وبعد يومين ، أو ثلاثة ، سيصبح أشبه بجيفة نتنة ، لا تُذَكِّر بشيء سوى بنتانة الجثث في القبور ، وحين يطول الوقت عليه أكثر سيخرج منه الدود . فاللحم مستودع الخبائث ، وما نشمّه ، ونراه من الجيفة ، إلا الخبائث الكامنة في أصلها . أمّا النبات ، فحين يموت يجفّ ، ويبقى طاهرًا ، مهما مضى عليه الوقت ، وحين نزرعه في باطن الأرض ، تعود له الحياة ، ويعطي ثمرًا طيّبًا طاهرًا ؛ فهل تشبه طهارةُ هذا نجاسةَ ذاك؟!*

وكان ، أيضًا ، من أشدّ الكارهين لشرب الخمر ، فالخمر- كما كان يقول- خمار سميك يحجب العقل ، والمخمور أشبه

بالدابّة منه بالإنسيّ ، والخمور يأتي أشياء يخجل منها في حالة صحوه ، ولذلك كان يحتفظ بموقع مميَّز للإله شيع القوم ، الكاره لشرب الخمر ، وكان يحضّ رماة النِّبال على أن يكونوا من أشياع هذا الإله ، ومقدِّمي النذور له .

أمّا القوى الخارقة التي كان يتمتَّع بها ، فقلّما اجتمعت في غيره ، إذ كان قادرًا على قراءة ما يعتمل في النفس ، وما يدور في الخاطر . وكثيرًا ما فاجأني ، أنا حنبل ، بجوابٍ عن تساؤل كان يدور في خلدي ، حتى من دون أن أنطق به ، أو يقول لي رأيه ، في أمر كنت متردّدًا في الإقدام عليه ، حتى قبل أن أسأله ، وكان جميع من يلتقون به أشبه بكتب مفتوحة ، أمامه ، يعرف ما يُظهرون ، وما يُبطنون ، بمجرَّد التحديق في عيونهم!

في إحدى المرّات ، سُرق عقد ثمين ، من سيّدة تدمريّة ، من عليه القوم ، وكان هذا العقد عزيزًا عليها ، أكثر من أيّ شيء آخر ؛ كونه هديّة من زوجها الذي فارق الحياة ، بعيدًا عنها في بحر القلزم . وقد بحثت طويلًا عنه ، وخصَّصت جائزة كبيرة ، لمن يعثر عليه ، ولكن من دون فائدة ، فلجأت إلى قصيّ ، وطلبت منه أن يساعدها ؛ فطلب إحضار جميع الخدم ، أمامه ، وأخذ يتميّزهم بنظراته ، ثم أشار إلى أحدهم ، قائلًا :

– *هذا هو السارق!*

فأنكر الخادم ، في بداية الأمر ، ولكنّ قصيًا أشار عليهم

بأن يجلدوه ؛ فجلدوه ؛ فواصل الإنكار ، وظلّ يواصل ، ثم أقرّ ، أخيرًا ، وأحضر العقد ، وسط ذهول الحاضرين .

ذات مرّة ، طلب منه أحد شيوخ روما ، وكان في زيارة لتدمر ، بأن يريه قرينه ، فقال له قصيّ :

– *دعك من هذا ، فإن قرينك لا يشبه ما تعتقده بشيء ، ولا أنصحك برؤيته .*

ولكن الشيخ الرومانيّ أصرَّ ، فما كان من قصيّ ، إلاّ أن أحرق بخور اللُّبان ، وحدّق بالرجل ، مليًا ، فظهر القرين للحظات أشبه بمسخ مشوّه ، قبل أن يغيب ، فصرخ الشيخ مرتاعًا ؛ ممّا رأى ، ثم أصيب بجمدة ، لبعض الوقت ، فقال له قصيّ :

– *لعلك بحاجة لأن تبتعد عن السياسة ؛ كي تنعم بالسكينة!*

وكان ذلك ، فقد أعلن الشيخ ، بعدها ، اعتزاله ، وانصرف إلى أملاكه في كمبانيا ؛ ليقضي بقيّة حياته ، في رعاية كرومه ، وزراعاته .

وحدث أن سألتُ قصيًا ، بعد زيارة المعلم ، أفلوطين ، إلى المعبد ، حين أقام في تدمر ، إن كان قد رأى قرين المعلم ، وما شكله؟ فقال :

– *ليس قرين أفلوطين من الجنّ في شيء ، إنه ربٌّ من عالم الأرباب!*

وكم كانت دهشتي كبيرة ، حين روى لي مالكوس البتانيّ ، قصةً تؤكِّد هذا الكلام ، مفادها أن أحد الكهنة المصريِّين أتى روما ، فتعرَّف عليه أفلوطين ، بوساطة أحد أصحابه ، فأراد أن يعرض ما لديه من قدرات ، وهمّ في أن يمكِّن أفلوطين من رؤية قرينه الجنيّ ، بعد استحضاره له ؛ فنزل أفلوطين عند رغبته ، وأُحضرت الدِّيَكة ؛ بناء على طلب المصريّ ، وارتدى الحاضرون جميعًا الأبيض ، وتمّ الاستحضار في هيكل إيزيس ، وهو المكان الطاهر الوحيد في روما ، على حدّ قول المصريّ ، فاستُدعي جنيّ أفلوطين للحضور ، عيانًا ؛ فحضر كائن نورانيّ ، فقال المصريّ :

– *طوبى لك يا أفلوطين ؛ فإن جنّيك ربٌّ من الأرباب ، وليس الذي يقف إلى جانبك من عالم الدونْ!*

ولم يستطع أحد أن يطرح أيَّ سؤال على المستَحضَر العِلْويّ ، وما لبث أن اختفى عن العيان ، إذ كان أحد الحاضرين قد خنق الدِّيَكة التي كان يمسك بها ؛ خوفًا ، أو حسدًا!

وحين رويتُ لمالكوس ، أنَّ قصيًا لم يكن يحتاج إلى قراءة شيء من التعازيم ، أو إلى إحضار أيّ طيور ؛ لكي يرى القرين ، أبدى كثيرًا من الدهشة ؛ إذ لم يسمع بمثل هذا من قبل!

وثمّة قصة أخرى ، جديرة بأن تُروى ، في هذا المقام ، حدثت بعد أن أبلغتُ قصيًا بمرض المعلم ، أفلوطين ، واعتزامه مغادرة تدمر ؛ فطلب منّي ، يومها ، أن أدعوه إلى الاستجمام ،

في حمّام الملك ، أذينة ، الحارّ ، القائم بالقرب من المعبد .

وكان أذينة بن خيران قد أمر ، في بداية عهده ، ببناء قاعة مسقوفة ، ومقاصير ، وثلاثة أحواض ، مكان الحمّام القديم المقام على ينبوع حارّ ؛ فكان البناء الجديد أعجوبة من أعاجيب تدمر الكثيرة ، ومفخرة من مفاخرها ، يقصده الزوّار ، من مختلف البقاع ؛ لينتفعوا بمائه القادر على شفاء كثير من الأمراض المزمنة .

وحين دخلنا ، أنا حنبل ، وأستكيوس ، وبوسانياس ، نحيط بأفلوطين ، ذهل المعلم من فخامة المكان ، وقارنه بحمّامات الإمبراطور ، كركلا ، وكان في انتظارنا المبجَّل ، قصيّ ، إذ أمر بصرف المنتجعين ، وأصرَّ على أن لا يكون أحد سوانا في الحمّام . وبعد أن مكثنا قليلًا في البركة المتوسطة ، والماء الدافىء يغمرنا ، حتى الأكتاف ، قال المعلم ، أفلوطين ، موجِّها السؤال إلى قصيّ :

– *أيها المبجَّل ، أيُّ الآلهة يمنح هذا الينبوع قوَّة العلاج؟*

فأجاب قصيّ :

– *إنه شدرفة ، إله الشفاء عندنا .*

قال أفلوطين مستغربًا :

– *أليس هو إسكولا بيوس!؟*

فردَّ قصيّ :

– *هو شبيه به ، ولكنه ليس هو تمامًا ، شدرفة هو تجلٍّ آخر*

من تجلّيات الإله ، بل ، بينما عند اليونان إسكولا بيوس هو ابن بل ، أو أبولون ، كما يسمُّونه! ولكنهما طبيبان إلهيّان قادران على شفاء المرضى .

وفجأة لاحظنا أن قصيًا بدأ يجيل بصره ، باحثًا عن شيء ، في مياه البركة ، ولم يلبث أن مدَّ يده إلى الماء ، وأخرجها ممسكًا بيد شيخ ، كان غاطسًا في مياه البركة ، ذو وجه نورانيّ وشعر أبيض مضفَّر بأكثر من ثلاثين ضفيرة ، وفي يده اليمنى عصا تلتفّ حولها أفعى .

قال قصيّ :

- لقد حضر شدرفة ، حين علم بوجود أفلوطين في الحمّام!

فذهلنا جميعا ؛ من رؤية هذا الإله العجوز الباسم الصامت ، واكتفى المعلم بالتحديق والصمت! وفجأة انسلّت الأفعى عن العصا ، وعامت على سطح الماء ، وجعلت تحوم حول أفلوطين ، وهي تتوقّف بين الحين والآخر ، كأنها تبحث عن شيء ما ، ثم ما لبثت أن غاصت في المياه ، فتبعها شدرفة ، وغابا في قاع البركة .

فقال قصيّ :

- لأمر ما غاص شدرفة!

وحين أطال الغوص ، وهبط الليل ، ولم يعد ، غادرنا الحمّام ، ونحن في حيْرة من أمرنا ، ولكنّ قصيًا أخبرني ، بعد أن غادر المعلم ، أفلوطين ، إلى أفاميا ، بأن شدرفة أدرك حال

المعلم ، ولم يستطع أن يمنحه ، إلاّ قوّة عام واحد ، فقط!

قبل دمار تدمر بأشهر قلائل ، وكان عمره ، يومها ، ينقص عن الخمسين بعام واحد ، اختفى قصيّ ، ولم يره أحد في تدمر ، بعد ذلك . البعض قال إن هاتفًا أتاه من الإله ، بل ، يخبره عن المصير الذي ستؤول إليه المدينة ؛ ففضّل الرحيل ، قبل أن يرى الكارثة بعينيه!

آخرون زعموا بأنهم رأوه في ليلة مقمرة ، يخرج من غار الجبل ، ممتطيًا عربة الآلهة التي تجرُّها المسوخ ، صاعدًا بها إلى السماء!

وثمّة من ادّعى بأنه كان يراه في الليالي المقمرة ، وهو يطوف في شوارع المدينة ، دون أن تلمس قدماه الأرض!

ولكن الحديث الذي بدا أقرب تصديقًا ، ذلك الذي رواه قائد قافلة كانت متوجّهة إلى العربيّة السعيدة ، عبر بصرى ، إذ قال لي ، بعد أن عاد من نجران ، حين بلغته أخبارُ الكوارث التي أصابت قوّاتنا ، إنه رأى قصيًا ، متخفّيًا بزيٍّ أعرابيٍّ يركب جملًا ، في مؤخّرة القافلة ، وكان يتحاشى الاختلاط مع التجّار ، والمسافرين ، ولم يعرف ، لا هو ، ولا أيُّ أحد آخر ، في أيٍّ محطّة غادر القافلة!

النظيرة

قلّما كان قصيّ يتحدّث عن الفترة التي سبقت قدومه إلى تدمـــر ، مع والده ، وهو دون العـــشـــرين . ولكن ، في بعض الأحيان ، عند الحديث عن الفرس والرومان ، كان يقول : إنه عاش الأيّام الأخيرة لمدينة النظيرة ، عاصمة مملكة الحضر ، وإنه لا يريد أن يرى تدمر تشهد المصير نفسه ، على يد جنود شابور ، ملك الفرس .

وحين كنّا نسأله عن تلك الأيّام ، كان يجيب باقتضاب ، وانكسار ، وكأنه لا يريد تذكُّر تلك الأيّام العصيبة ، بأن والده كلاب بن قصي انتقل من بصرى إلى النظيرة ؛ بناء على طلب من سنطروق الورع الذي دعاه ؛ ليكون أفكلًا أكبر ، في مملكته .

ولكن ، في إحدى المرّات ، وعلى غير عادته ، استرسل ، فقال :

- *أسـلاف سنطروق الورع هم من أبناء عـمّنا ، من بني نصـر ، هم وأسـرة أذينة ، أصلُهم من جـبل حـوران في الولاية العـربيـة ، ومن سـلالة كـهنة وملوك النبط . جـدّه حـمل لقب ملك العرب ، بعد مقتل رئبال الثاني ، ولكنه احتفظ بالكهانة ،*

هو وابنه ، وحفيده ، إلى أن قرّر الحفيد أن يتخلّى عن الكهانة ، ويمنح هذه الرتبة لوالدي . وقد ساس والدي المعابد ، جميعًا ، على قدم المساواة ، لم يفرّق بين معبود ومعبود ، وبين كاهن وكاهن . كان الجميع ، أمامه ، عيال الله .

قلت :

– ولكنه كان يرغب ، بشدّة ، في رفع شأن معبد اللات ، وجعْله مقدَّمًا على جميع المعابد الأخرى .

قال :

– لأن اللات هي ربّة العرب أجمعين ، وإعلاءُ شأنها يجعل من مملكة الحضر ، ومدينة النظيرة ، قبلة للجميع ، بعد أن لحق بملوك النبط ما لحق ، وبعد أن علا شأن آلهة الرومان ، وأباطرتهم في بصرى ، على شأن آلهة العرب ، وملوكهم .

قلت :

– ولكن الفرس لم يمهلوه .

قال :

– نعم ، لم يمهلونا ، إذ سرعان ما حاصروا المدينة ، وشدّدوا الحصار ، لعام كامل ، أجبر سنطروق الورع على التسليم ، فحضر والدي إلى تدمر ؛ نزولًا عند رغبة خيران بن وهب اللات ، صديقه القديم ، وابن عمّه البعيد .

قلت :

– ولكنه عاد إلى بصرى ، سريعًا ، كما أعلم .

قال :

– نكبة الحضر كانت أكبر من أن يحتملها جسده المتعب ؛ فقرّر أن يموت في بصرى ، ويدفن قرب معبد بكّة القديم .

كانت قصص دمار مملكة الحضر ، على يد شابور الفارسيّ ، قد أصبحت حديث الناس ، وشغلهم الشاغل ، في تدمر ، وغيرها من مدن الشرق . لم يصدّق أحد أن تسقط تلك المدينة المنيعة ، بمثل تلك السهولة ، وأن لا تقوم لها قائمة ، بعد ذلك ، فالحضر لم تكن مملكة عاديّة ، كانت أثرى ممالك العرب ، في زمنها ، وكان الذهب يتدفّق على خزائنها ، مثل نهر جار في الربيع ، وكان يساندها كثير من رجال القبائل المنتشرين في البادية ، أمثال تنوخ ، ولخم ، وأسد ، ونزار ؛ فما الذي حدث إذن ، حتى تسقط بهذه السهولة؟!

لا أحد كان يعلم ما حدث ، تمامًا ، قبيل سقوط النظيرة ، ولكن القصة التي تداولها الجميع ؛ كانت عن خيانة ابنة الملك لأبيها ؛ بسبب وقوعها في حبّ شابور!

تقول هذه القصة : إن سميَّة ابنة سنطروق الصغرى ، وبعد عامين من الحصار ، وقعت في حبّ ملك الفرس ، فأرسلت له من يخبره بأنها ستسلّمه مفاتيح المدينة ، إن هو تزوّجها ، فردّ عليها بأنه وافق على طلبها ، وبأنه سيتزوّجها ، فور إرسالها المفاتيح . وفي إحدى ليالي الحصار الرتيبة ، شرب سنطروق الخمر ، حتى سكر ، فأخذت الأميرة سميّة مفاتيح باب

المدينة ، من تحت رأسه ، وبعثت بها إلى شابور ، ففتح الباب ، واستولى على المدينة .

ولكن ، ثمّة من يقول : إن قصّة المفاتيح غير مقنعة ، أوّلًا ؛ لأن سنطروق كان ممتنعًا عن المتع ، ومنها شرب الخمر ، ويعيش في قصره حياة الزهد ، وثانيًا ؛ لأن شابور لم يكن جميلًا ، يمكن أن تقع في حبّه النساء ، ولم يكن شابًا يأسر قلوب العذارى ، بل إن خيانة الأميرة كانت بسبب رغبتها في الخلاص من الحصار ، وسأمها من الإقامة في القصر ، وهي التي اعتادت على حياة البرّيّة في مضارب خالها ، مالك التنوخيّ ، ويروي هؤلاء أن الأميرة ، سميّة أرشدت ملك الفرس على قناه ماء واسعة لا يعلم أمرها ، إلاّ المقرَّبون ، ومنها ولجت جيوش الغزاة إلى المدينة .

وهناك من يقول : إنها دلّتهم على طِلَّسْم كان يحفظ المدينة ، وإنها أخبرتهم بأن هذا الطِّلَّسْم لا يسقط ، إلا بحمامة ورقاء ، تُخضَب رجلاها بحيض جارية بكر ، ذات عينين زرقاوين ، ثم تُطلق تلك الحمامة ، فإذا وقعت على سور الحضر سقط ذلك الطِّلَّسْم ، ففتح الباب ، وكان من أمر المدينة ما كان ، إذ دخلها شابور ، وقتل سنطروق ، واستباح المدينة وخرّبها ، وتزوّج سميّة ، كما وعدها!

ويروي بعض أهل الحضر اللاجئين إلى تدمر ، أن شابور وضع الأميرة ، سميّة ، في قصر متواضع لا يليق بها . وفي

إحدى الليالي كانت تتململ في نومها ، فأحضر الشمع ، وفتّش فراشها ؛ فعثر على ورقة آس ، كانت تزعجها .

فسألها :

– *أهذا الذي أسهرك؟*

قالت :

– نعم .

قال :

– *فما كان أبوك يصنع بك؟*

قالت :

– *كان يفرش لي الديباج ، ويلبسني الحرير ، ويطعمني صفوة الطعام ، ويسقيني صفوة الشراب .*

فقال لها :

– *إن كان جزاؤه ، وهو الذي أنعم عليك ، كلَّ تلك النعم ، أن خنتِه ، فماذا ستفعلين بي ، وأنا أسكنك قصرًا أقلَّ من قصره؟*

فدعا جنده ، فربطوا جدائلها بذنب فرس ، ركضت ؛ حتى قتلتها!

وكنت أتحيّن الفرص ، أنا حنبل ، لأسال قصيًّا عن صحّة مثل هذه القصص التي يتسلّى القوم بها ، في أمسياتهم . وفي إحدى المرّات ، وبعد أن أدَّينا طقس الذبيحة غير الدمويّة ، في مولد ابن السيّد ، ورود ، قلت له :

– أيها المبجَّل ما صحّة الأخبار التي تحدّثت عن خيانة ابنة سنطروق الورع لأبيها ، وقومها؟

فقال ، وكأن الكلمات تخرج من قلبه الدامي :

– ليست صحيحةً ، هي محض افتراءات ، أطلقها الذين خذلوا الملك ، ولم ينصروه ، من قبائل باعت أرواحها لشابور ، مقابل الذهب والفضة ، فالأميرة ، سميّة ، كانت كبيرة قيان المعبد ، وخرجت مع والدها ، حين سُلِّمت المدينة للخراب .

قلت :

– وماذا حلَّ بسنطروق؟

قال :

– خرج إلى كورة أنطاكيا ، مع حاشيته ، وعائلته ، والألوف من جنود الجرامقة ، وحلف التنوخ ، بعد اتفاق مع الرومان .

قلت :

– يقال إنه اعتنق المسيحيَّة ، ومات هناك ، معتكفًا في أحد معابد المسيحيِّين .

قال :

– نعم ، هكذا أخبروني .

قلت :

– ومالك التنوخيّ؟

قال :

– خرج ، أيضًا ، مع قومه إلى كورة أنطاكيا ، ووضع جيشه

في خدمة روما ، وضدّ شابور .

قلت :

– وهل صحيح بأن الأنطاكيّين نجحوا في تنصير التنوخيّين ، وحوّلوهم من ديانتنا إلى المسيحيَّة؟

قال :

– نعم ، هذا ما علمته ، تنوخ ، الآن ، أنطاكيّة الإقامة والديانة!

سألته عن سبب تحوّل تنوخ ، والجرامقة ، وسنطروق ، إلى المسيحيّة ، فاكتفى بهزِّ رأسه هزّات خفيضة ، وعلى ملامح وجهه حزنٌ وألم عميقان ، ولم يشأ أن يقول شيئًا ، ولم أسمعه يتحدّث عن النظيرة ، وكارثتها ، بعد ذلك!

دلفوي

قبل أن يصبح قصيٌّ أفكلًا أكبر في تدمر ، يرتدي الأرجوان ، ويحرق الذبيحة الملكيّة ، رُسِّم بمرتبة كمرا ، أيْ كاهنا يساعد الأفكل في إقامة الطقوس ، ثم انتظم ، بعد ذلك ، مع أذينة بن خيران في أكاديمية بلوتارخ ، على نفقة خيران بن وهب اللات ، في مدينة دلفوي اليونانيّة ، حيث معبد إله تدمر الأكبر ، بل الذي يسمّيه اليونانيّون أبولون .

كثيرًا ما كان قصيٌّ يستذكر لحظات وصوله إلى دلفوي ، أمامي ، أنا حنبل ، فكان يغمض عينيه ، وهو يستعيد ذلك البهاء الراسخ في ذاكرته :

– *بعد مغادرة قيرونيا مدينة بلوتارخ ، يصعد المرء جبلًا يمتدّ اثني عشر ميلًا ، محفوفة بالمخاطر ، يلتقي ، عند آخرها ، بمدينة فوكيس . ثم يصل إلى سفح جبل برنسوس نفسه ، حيث دلفوي ، مدينة اليونان المقدَّسة . وعلى مدِّ النظر ، من تحتها ينبسط سهل كريسيا الذي تتلألأ فيه آلاف أشجار الزيتون ، بأوراقها الفضيَّة . وعلى بعد خمسمئة قدم أخرى ، تحت هذا السهل ، يمتدُّ في الأرض خانق صغير من خليج كورنثيا ، تمرّ*

فيه السفن ، وهي مقبلة من بعيد ، تتهادى ببطء وصمت فوق المياه الساكنة المخادعة . ومن وراء الخانق سلاسل أخرى من الجبال ، تكسوها ، عند المغيب ، حلّة أرجوانيّة . وعند منعطف الطريق يلتقي المرء بنبع كستاليا ، بين صخور قائمة كالأعمدة .

لم يشكّ قصيّ ، وأذينة ، لحظة ، وهما واقفان على قمّة الجبل ، حيث الضباب ، من جهة ، والبحر المتلألىء بأشعّة الشمس ، من جهة أخرى ، في أن الإله ، بل ، يمكث تحت هذه الصخور ، يقذف الرعب في قلوب الأعداء ، بزلازله التي لا تتوقّف ، وصوته الهادر المنبعث من باطن الأرض ، والمصحوب بالأبخرة البِيض .

قال لأذينة ، وهو يشير إلى صخرة أمفالوس العظيمة التي كانت تسدّ انبعاث الأبخرة الإلهيّة :

– *هنا سُرَّة العالم ، ومركز الأرض . فكّرت ، وأنا أتأمّل البخار المتصاعد من فم الأبديّة ، لماذا يسمّي الأنباط إلهنا ، بل ، باسم هبل؟ لا شكّ في أن التسمية أتت من هنا . أليس هبل ، بلغتنا ، هو اسم آخر للأبخرة المتصاعدة؟!*

لم تكن دلفوي أكاديمية تلقّى فيها قصيّ ، وأذينة ، مبادىء الفلسفة ، والخطابة ، وتواريخ الأوّلين ، فحسب ، بل كانت تجربة روحيّة عظيمة ، أوصلتهما إلى معرفة الإله ، بشكل حسيّ وملموس ، ولذلك لم يعد يعنيهما ، كثيرًا ، حديث معلّمهما عن الأدلّة العقليّة ، حول وجود الإله ، أو عدم وجوده ، فهما قد

رأياه رأي العيان ، وسمعا صوته الهادر ، وشعرا بإرادته التي لا تُرَدّ .

وكما أخبرني قصيّ ، كان أذينة كثير الاعتراض على استطرادات المعلّم ، وكان يحاصره بالأسئلة الفجّة التي كانت تعرقل النقاش ، وتمنعه من المضيّ قدمًا . في حين كان قصيّ يطلب المزيد غير مكتف ، حين يتعلّق الأمر بفهم الحقيقة .

لم يؤمن أذينة بأن على الفيلسوف أن يتلقّى أسئلة ، أو يعطي أجوبة خارج السياق المرسوم ، أو أن يصل الحديث في قاعة الدرس إلى التشكيك بالآلهة ، وقدراتها . أمّا قصيّ فكان يرى أنه من الصعب ، بل ، لربما من المستحيل ، فيما يتعلّق بالعوامّ ، أن يقولوا ، أو يفكروا بأيّ شيء يتعلّق بطبيعة الآلهة ، أو إرادتها .

معظم الجدل العقيم بين المعلم وتلميذيه السوريّين كان حول أصل الإله اليونانيّ ، أبولون . فالمعلم كان يدرّسهما بأنه كان ابنًا لزيوس وليتو ، وأنه ولد في جزيرة ديلوس الغارقة في بحر إيجة ، وأن عبادته انطلقت من تلك الجزيرة إلى اليونان ، وآسيا الصغرى ، وأنه بنى ، بيديه ، أسوار طروادة ، وناصر الطرواديّين ، وأوقع الخصومة ، بين آخيل وأغاممنون ، فيما كان بقيّة الآلهة يناصرون الإغريق . وهما ، أيْ قصيّ وأذينة ، كانا يوافقان على أن والده هو زيوس الذي هو بعل السماويّ ، في لغة بلادنا ، وأن أمّه هي اللات التي حوَّر اليونان اسمها إلى

ليتو . ولكنهما كانا يصرّان على أن أصله من جزيرة تيلوس التي تسمّى ، في لغة بلادنا ، ثلوان ، والواقعة في خليج الكلدانيّين ، أو خليج فارس ، كما يسمّيه جغرافيّو اليونان ، وأن الفينيقيّين الذين هاجروا من تلك الجزيرة ، في عصر الملاحم اليونانيّة ، إلى ساحل سوريا ، هم الذين نقلوا عبادته إلى هذه البلاد .

وثمّة ملحوظة كانا يردّدانها ، في كلّ محاضرة يُذكر فيها الإله ، أبولون ، تتعلّق بتمثيله هو ، وبعض الآلهة الأخرى ، أطفالًا ، أو شبّانًا ، في ميعة الصبا ؛ لأن في ذلك انتقاصا ، وحطًا من قدر الآلهة .

وكان قصيّ يردّ على المعترضين ، بالقول :

– *إنه من الجهل المفرط إعطاء الآلهة أشكالاً غير كاملة ، فالطفولة ، والصبا ، مراحل ناقصة ، لا تكتمل إلا بالشيخوخة!*

والحقّ أن الشعوب كافّة كانت تمثّل الإله ، بل (أبولون) طفلًا ، أو شابًا عاريًا ، إلا نحن السوريّين فنمثّله بتمثال ملتح ، وبالإضافة إلى ذلك ؛ فنحن الوحيدون الذين نمثّله مكسوًا برداء البيلوس .

وكان قصيّ يحاجج ، دائمًا ، بأن كلمة أبولون ، ما هي إلاّ الصيغة اليونانيّة لاسم هبل ، في لغة الأنباط ، أو بل ، في لغة التدمريّين ، وأنه لا يزال يُعبد في جزيرة تيلوس ، وبلاد عُمانا ، حتى اللحظة ، بوصفه إلها حاميًا للبحّارة والملّاحين ، وأن لبعل السماويّ زوجة واحدة ، هي اللات ، لا زوجتين ، ليتو وهيرا ؛

لأن اللات لم تكن ليتو ، فقط ، بل هي هيرا ، أيضًا ، في تجلٍّ آخر!

فكرة التجلّي لم يكن يفهمها أستاذهما ، بشكل واضح ، وكان قصيّ يستخدم كلَّ ذخيرته اللغويّة ؛ لشرحها للمعلم :

– *الآلهة يتجلّون في أكثر من صورة ، فبعل السماويّ ليس هو زيوس ، فقط ، بل هو ، أيضًا ، هاديس وبوسيدون .*

وعند هذا الحدّ من النقاش كان المعلم يصمت ، وينهي الدرس ، دون أن يستطيع إقناعهما بالرواية التي يحفظها ؛ ولذلك ، أمضى الشابّان جزءًا كبيرًا من وقتهما ، خارج قاعة الدرس ، مشاركَين الحُجَّاج المتحمّسين في مواكبهم إلى الهيكل ، مقدِّمَين القرابين ، والأضحيات ، مرتِّلَيْن الأناشيد ، والأدعية والصلوات ، أو جالسَيْن خاشعَين في المدرَّج ، يتأمّلان بدهشة البحر والجبال . أو يستمعان إلى عظات الكهنة الذين يمجّدون أبولون ، مستنكرين الثرثرة ، قرب السنديانة ، أو الصخرة ، كما قال أحدهم ، ذات مرّة ، ساخرًا من جدالات الفلاسفة والحكماء :

– *من يفوق حكمة الإله ذلك الذي قال ، حقًا :*

إنني أُحصي عدد حبّات الرمل ، وأعرف حدود البحر .

إنني أفهم عن الأخرس ، وأسمع عن الأبكم .

خلال مشاركة قصيّ لمواكب الحجّاج ، كانت تعتريه حالة من الوجد والسموّ الروحي ، لم يكن يستطيع تفسيرها ، لكنه

كان يشعر بأنها تنقص من وزنه ، وتجعله أشبه بكائن أثيريّ ، لا يشعر بما حوله ، كما أخبرني ، غيرَ مرّة .

هذه الحالة كان يصل إليها ، في نهاية الموكب ، ولحظة الدخول إلى حرم الهيكل ، وفي الحقيقة ، لم يكن ، وحدَه ، من يشعر بهذا السموّ ، فغالبيّة المشاركين في الموكب ، يختمون أناشيدهم ، وتراتيلهم للإله ، أبولون ، وقد أصيبوا بما يشبه الدُّوَار ، وهنا كان الكاهن الأكبر يستلقي أمام النصب ، ويبدأ بتلقّي الهاتف الإلهيّ ؛ فيتحوّل صوته إلى صوت أبولون الذي يهتف للحاضرين بنبوءاته ؛ فينطرح البعض أرضًا ، وقد فارقهم الوعي ، ويجهش الآخرون بالبكاء ، قبل أن يتقدّم رجلان من الكاهن الأكبر ، ويوقظانه من غيبوبته ، واختلاجاته .

في إحدى جلسات التأمّل في المدرّج المشرف على المنظر الفسيح المنتهي بالبحر ، روى قصيّ لأذينة ما بات يعتريه ، حين يدخل إلى حرم الهيكل ، وبكى ، وهو يحدّثه عن هواتف أبولون ، ورسائله التي تحوّل الإنسيّ إلى كائن أثيريّ مترفّع عن حاجات جسده .

شعر أذينة بكلام صاحبه ؛ فشدّ على يده بقوّة ، وهو يقول :

- لن أكون كاهنا للإله ، بل ، إنما سأصبح مقاتلًا . . أنت الكاهن يا قصيّ ، ستكون كبير كهنة تدمر ، أمّا أنا فعائد إلى تدمر .

اعترت الدهشة قصيًا الذي حملق متسائلًا ، فتابع أذينة :

- أراد والدي أن أصبح كاهنًا ، ويصبح شقيقي ، ورود ، قائدًا للجيش ، ولكن كاهن دلفوي قال لي ، البارحة : إن سيفي سيلمع في الشرق ، ويصل بريقه إلى الغرب!

ولم يكن أذينة ينتظر إلا هذه الكلمات ؛ ليحسم أمره ؛ فقرّر العودة إلى تدمر ، قبل أن يكمل عامه الثاني في المدينة المقدّسة ، تاركًا خلفه دروس الفلسفة ، والتاريخ ، وحِكَم بلوتارخ ، راسمًا في مخيّلته طريقه الذي قرّر المضيّ فيه .

أمّا قصيّ فقد أمضى عامين آخرين في اليونان ، على هذا النحو المليء بالحماسة والتأمّل ، قبل أن يعود إلى تدمر ، وقد بلغ درجة روحيّة كبرى ، شعر بها كلّ من رآه ، في تلك الأيّام .

ملك العرب

في الشهور العشرة التي أعقبت عودته من بلاد اليونان ، حدثت أشياء كثيرة ، نقلتْ أذينة بن خيران ، من حال إلى حال ، ووضعته في قلب لعبة الحياة!

بعد وصوله بأيّام قلائل ، أعلن أهل تدمر ، باحتفالات كبرى ، زواجه من ابنة عمّه ، أمة اللات ، بنت أذينة ؛ تتويجًا لقصة حبّ عنيفة ، وصلت أصداؤها إلى المدن ، والبوادي المجاورة . ولكن ؛ لم يمضِ وقت طويل على فرحة الزواج ، حتى فارق والده ، خيران بن وهب اللات الحياة ، تاركًا في نفسه جرحًا عميقًا لم يندمل ، ولم تلبث عروسه ، هي الأخرى ، أنْ ماتت ، أثناء ولادة متعسِّرة ، أنجبت فيها طفلًا أسماه خيران ؛ تيمُّنًا بوالده!

كان يظن ، كما أسرَّ لقصيّ ، ذات مرّة ، بأن الآلهة أرادت من وراء لعبة الأقدار هذه ، أن تُعدَّه لقابل الأيّام . قال إنه لم يكن يدرك حقيقة الموت ؛ حتى رأى بعينيه جسد والده مُسجّى أمامه ، على سرير غسيل الموتى . صدمه أنه لم يبتسم ، حين دخل إليه ، ولم ينهض لعناقه ، كما كان يفعل ، دائمًا . تلمَّس

جسده ، وهو يسكب الماء الفاتر عليه ، حاول أن يوقظه ؛ فوجده باردًا ، حاول تحريكه ؛ فوجده ثقيلًا ، كتمثال من حجر .

لم يكن الموت جديدًا عليه ، فقد رأى الكثيرين يموتون ، أمامه ، في معركة هنا ، أو مبارزة هناك ، أو بين براثن مفترس جائع ، ولكن موت شخص قريب إلى هذه الدرجة كان شيئًا آخر ، لم يكن يدرك حقيقته ، إلا حين رآه بعينيه ، وتلمّسه بيديه .

موت زوجته ، أمة اللات ، كان شيئًا آخر ، كما قال لقصيّ : موت مقترن بالحياة ، حزن مقترن بالفرح . حين لفظت آخر أنفاسها ، وهي تضع مولودها ، صاح الطفل باكيًا معلنًا عن ذاته بأنه حيّ . يومها ، لم يستطع أن يحدّد ، وهو يرى اجتماع الموت والحياة في الغرفة نفسها ، إن كانت دموعه الغزيرة انهمرت ، فرحًا ، أم حزنًا؟

الشهور العشرة بدت ، وكأنها سنوات عشر ، ليس في أفراحها وأحزانها ، وحسب ، بل ، أيضًا ، في هموم تدمر المتراكمة ، منذ سنين ، والتي لم يكن يعلم قبل ذلك من أمرها ، إلاّ النزر اليسير .

كانت المدينة ، كما أخبره عمُّه ، تحاول استيعاب كارثة إغلاق ملك الفرس الجديد للطريق البحريّ العابر لخليج الكلدانيّين ، تلك الكارثة التي جرَّدت تدمر من تجارة الحرير ، وأجبرتها على العودة إلى المتاجرة بالمُرّ واللُّبان ، مع بلاد حضرموت ، واضطرتها لأن تصارع ؛ لإحياء طريق عابر

للصحراء ، قلّما استخدمته قوافلُها ، منذ طفرة الحرير . ولولا المدَّخرات المحفوظة ، منذ أيّام الرفاه ، لغابت البهجة عن تدمر غيابًا مطلقًا ، ولربما غادرها أهلها إلى غير رجعة ، باحثين عن مصادر رزق ، في أمكنة أخرى .

لقد اعتادت تدمر ، قبل هذه الكوارث ، وبفضل حرير الصين ، على البذخ والرخاء والتنعُّم بزينة الحياة ، وحتى التدمريّ العاديّ كان يعيش في بيت كبير يشبه قصور ملوك الأمم الأخرى ، مزخرف ومؤثَّث ، بنخب القطع المجلوبة من محترفات الشرق والغرب ، ويقوم على خدمته كثير من العبيد والإماء . يأكل ويشرب ما لذَّ وطاب ، من دون حساب ، ويرفل أولاده وبناته بالحُلّل القشيبة ، والأرجوان ، وفي صندوق زوجته كثير من قطع الذهب ، والجواهر النفيسة .

قبل خمس وعشرين سنة ، وكان أذينة ، يومها ، طفلًا في المهد ، قُتل أرطبان ، آخر ملوك البارثيّين ، على يد ابن كاهن زرادشتيّ ، يدعى أردشير بن بابك بن ساسان ، أعلن نفسه ملكًا على بلاد فارس ، وشرع فور جلوسه على عرش طيسفون ، بإحراق مدن ، وموانىء التدمريّين المنتشرة على طول ساحل خليج الكلدانيّين .

لم تدرك تدمر في بداية الأمر ، أسباب هجمة أردشير الكبرى ، وظنّتها رقصة انتصار لحاكم جديد مزهوّ بقوّته ، ربما تهدف إلى إيقاع الخوف في القلوب ، أو ابتزاز مزيد من الأموال .

ولذلك ، توجّه وفد كبير ، من تجّار المدينة ، وأشرافها ، برئاسة خيران بن وهب اللات ، وممثّلون عن العشائر التدمريّة الأربعة إلى طيسفون ، وحاولوا ، من دون جدوى ، عقد اتفاق معه ؛ لإعادة تدفّق البضائع ، كما كانت الأمور ، أيّام البارثيّين . ولم تفلح الهدايا الثمينة التي قدّموها ، ولا التعهّد بعائدات مُجزية سيدفعونها ، في إثنائه عن قراره الحازم ، بمنعهم من الملاحة في الخليج ، فعادوا منكسرين ، حائرين في أمره ، مندهشين من سبب رفضه ، وامتناعه عن قبول أيّ تسوية!

ولم يطل الوقت بهم ، حتى علموا بالحقيقة كاملة ، إذ أخبرهم التجّار العائدون من بلاد السكيث عن الحرب الصينيّة ، وانقسام إمبراطوريّة الهان إلى ثلاث ممالك متناحرة ، هي : مملكة شوهان ، في الغرب ، ومملكة واي ، في الوسط والشمال ، ومملكة وو ، في الجنوب والجنوب الشرقيّ ، واتفاق أردشير مع ملك شوهان على نقل البضائع ، ومنها الحرير ، إلى الغرب ، عبر الطريق الشماليّ العابر لبلاد الترك الهفتاليّين ، وإغلاق أيّ طريق آخر يمكن أن تستفيد منه مملكة وو الجنوبيّة التي كانت تطمح للاستحواذ على التجارة البحريّة!

في إحدى الأمسيات ، غادر أذينة وأذينة مجلس الشيوخ ، بعد جلسة مليئة بالصخب والجدل ، حول أيّام تدمر المقبلة ، وما عساها تفعل ، بعد أن أحرق شابور مدينة عانات ، وأرسل رأس قائد حاميتها ، مصعب بن غانم النبطيّ ، على طبق من فضّة!

سارا نحو الأغورا ، وهما صامتان يتأمّلان الوحشة التي استقرّت في المكان ، بعد أن كان لسنوات طوال مرتعًا للتجّار ، والرَّحالة ، والمغامرين ، من الشرق والغرب ، وللحُواة وأرباب اللهو ، وللمومسات القادمات من بلاد السكيث ، وجزر البحر .

كانت تماثيل رجالات تدمر الذين ساعدوا القوافل على عبور الصحارى ، تزيِّن الأغورا ، والشارع المعمَّد ، تكريم سارت عليه المدينة ، أيّام رخائها ؛ عرفانًا بجهود المحسنين من أبنائها .

بدأ أذينة بن وهب اللات بتعداد الأسماء ، وهو يسير الهوينى ، مشيرًا إلى التماثيل ، والكتابات المرقونة بالتدمريّة واليونانيّة :

– *هذا تكريم ليدعبل بن عزيزو المحسن لمعبد ، بل ، وهذا لمالك بن نيشا بولحا ، الملقَّب بالحشاش المحسن لمعبد ، بل ، وهذا ليرحاي بن زبداللات ؛ لحمايته التجّار ، وإكرامهم ، وهذا ليرحاي بن نبو زبد بن سلام اللات ، والي ثلوان ، وهذا لتجّار عائدين من سكيثيا ، في مركب حنينو بن حدودان ، وتكريم لحنينو نفسه ؛ لمساعدته لهم .*

صمت أذينة بن وهب اللات ، وهو يقترب من لائحة المكوس المنتصبة في المكان . وقف أمامها ، وهو يتأمّل مقادير الضرائب المفروضة على التجّار العابرين ، والبضائع التي كانوا يتاجرون بها . لم يبقَ من كلّ ذلك ، إلا القليل .

قال بعد برهة ، وعلى محيّاه حزن وحَيْرة :

- أذكر يا ابن أخي ، تلك الأيّام ، حين كانت تدمر سرّة العالم . هنا كنت ترى جميع الألوان ، وتسمع جميع الألسن ، هنا كنت تشرب أطيب خمور اليونان ، وتأكل ألذّ قديد الأرمن ، ونخبة أجبان بلاد الغال ، وصفوة محار سوقطرة ، على مائدة واحدة . أمّا الآن ، فأين نحن من تلك الأيّام؟! لقد بتنا تحت رحمة شابور بن أردشير ، فها هو يقترب منّا ، شيئًا فشيئًا ، وبعد عانات ، ستكون دورا ، ثم تدمر!

تأمّل أذينة بن خيران حزن عمّه بتمعّن ، وهو يفكّر في تنفيذ التوصية التي خلص إليها مجلس شيوخ المدينة ، قبل قليل ، والداعية لإنشاء جيش قوّي قادر على مواجهة تمدُّد شابور ، يكون هو ، أذينة بن خيران ، على رأسه ، ويساعده في ذلك ابن عمّه ، معن ، أو من يراه مناسبا لتأدية المهمّة .

قال لعمّه :

- لا بدّ من استدعاء الضبّاط التدمريّين العاملين في جيوش الرومان : زبداي بن بولحا ، قائد لواء النخبة ، في داسيا ، وزباي بن يدعبول ، قائد لواء الفرسان الرماة ، العامل في جزيرة بريطانيا ، وسعداللات بن أبجل ، قائد وحدة الفرسان الوطنيّين ، في نزالا .

ربّت أذينة بن وهب اللات على كتف ابن أخيه ، وهو يقول مشجّعًا :

- أحسنت الرأي يا ابن أخي ، افعل ما تراه مناسبًا ،

فقواعد اللعبة تبدّلت ، ولم تعد روما تلك القوّة المروِّعة التي تُدخل الرعب إلى قلوب الأعداء ، بعد أن تجرّأ عليها الفرس والبرابرة ، وأذاقوا جيوشها الخذلان في أكثر من موقعة ؛ في شرقيّ الإمبراطوريّة ، وغربيّها!

كان القرار صعبًا لغاية ، إذ لم تعلن تدمر ، في يوم من الأيّام أنها مدينة محاربة ، بل كان السلام دينها وديدنها ، منذ إعلان الرجال الأربعة ونسائهم عن تأسيسها ، قبل مئتين وخمسين عامًا . صحيح أن بعض الضبّاط التدمريّين كانوا يقودون ألوية عسكريّة ، منذ أيّام الإمبراطور ، طيباريوس ، وأن فرقة رماة النّبال التدمريّة هي الأكفأ بين جميع فرق الإمبراطوريّة ، ولكن ذلك كان ضمن جيوش الرومان ، وتحت قيادتهم .

لقد أدرك أذينة بن خيران بعد تفكّر عميق ، ولحظة استبصار ، بأن الطريق الوحيد لمواجهة شابور ، هو جمع شتات القبائل المنتشرة ، غربيّ الفرات ، في جيش واحد ، وتحت إمرة رجل واحد . ولكن المهمّة ليست سهلة ، كما كان يدرك ، في قرارة نفسه ، فهو يعرف هذه القبائل قبيلة قبيلة ، وفخذًا فخذًا ، ويفهم الحساسيّات التي تجمعها ، أو تفرِّقها ، فقد أمضى شطرًا كبيرًا من عمره في مضاربها ، حين كان يتعلّم فنون القتال ، وصيد الأسود والنمور .

طوال عام ، تنقّل أذينة من معسكر إلى معسكر ، ومن

خيمة إلى أخرى ، وكانت رسالته التي أسمعها لملوك القبائل بسيطة سهلة ، كما قيل لي ، أنا حنبل ، مؤدّاها : أن عصرًا جديدًا بدأ مع سقوط أسرة البارثيّين ، وصعود أسرة الساسانيّين ، وأن زمن السلام ولّى ، إلى غير رجعة ، فأردشير وابنه شابور لم يدّخرا جهدا ؛ للاستحواذ على هذه البلاد ، وتحويل أهلها إلى عبيد ، والرومان باتوا عاجزين عن حماية أنفسهم ، حتى في روما ذاتها ؛ ولذلك ، لا بدّ أن تجمَع القبائل كلمتها ، تحت راية واحدة ؛ لأنها حين تفعل ذلك ، تكون قد تفوّقت على الفرس والرومان ، وستعود سيّدة ، كما كانت أيّام ملوك العرب السالفين!

وقد علمت من بعض المشاركين ، في تلك المفاوضات ، حين أرسلتني الملكة ، زنوبيا مبعوثًا مع قصيّ ؛ لتجديد الحلف القديم مع تلك القبائل ، أنه كانت لكلّ قبيلة مسوّغاتها ودوافعها الخاصّة لدخول هذا الحلف ، فقبائل تنوخ التي جمعت قوّاتها في معسكر خناصرة ، كانت تريد النصيب الأكبر من الغنائم ؛ لأنها تدرك حجم قوّاتها واجتماعها على كلمة واحدة . ولم يجد أذينة غضاضة في قبول هذا الشرط الذي كان يتوقّع أن يثير حفيظة القبائل الأخرى ، ولكنه فوجيء بانعدام اكتراث الآخرين به ؛ لأن قبائل مضر وأسد ونزار ، المرابطة على تخوم الفرات ، وفي عمق البادية ، كانت حائرة ، تحت أيّ راية تقاتل ، بعد دمار مملكة الحضر . أمّا قبائل

الجنوب ، وعلى رأسها الغساسنة ، فلم تطلب أيَّ امتيازات ، ولم تطرح أيَّ شروط ، إذ بايعته على السمع والطاعة ، في السرّاء والضرّاء ، فور عرضه عليها دخول الحلف ؛ نظرًا لما عانته ، منذ نكبة الأنباط ، من تدخُّل الرومان في التجارة ، وتحويلهم فرسان هذه القبائل من سادة للبرّ ، إلى مجرّد خفراء ، يعملون تحت سلطة حاكم رومانيّ غريب ، لا يعنيه سوى جمع الضرائب والمكوس!

وهكذا ، لم يجد أذينة بن خيران ، خلافًا لما كان يعتقد ، أيّ عناء في كسب ولاء هذه القبائل الناقمة على شابور ، والمتذمّرة من الرومان ، والمتعطّشة لعودة تدفّق الأموال عليها ، كما كانت عليه من قبل ، بل بدا الأمر ، وكأنها كانت تنتظر مخلِّصًا ينتشلها من عجزها ، وحيرتها ، وتردّدها ، ولذلك أعلنته ، جميعًا ، في احتفال كبير على مقربة من تدمر ، ملك ملوك العرب ، أجمعين .

الأفكل

لم ينتظر قصيّ ، طويلًا ، في بلاد اليونان ، بعد مفارقة أذينة له . كان يسابق الزمن ؛ للانتهاء من دروسه التي غدت مملّة ، بعد أن بلغه اليقين ، إذ أمضى عامه الأخير ، وهو يستمع ، على مضض ، لموضوعات شتّى ، كعلم الأعراق ، والموسيقا ، والفلك ، والرياضيّات ، والجغرافية ، والفيزياء ، وعلم النفس ، وفقه اللغة ، والأدب ، وكلّها من مقالات ، وكتب بلوتارخ التي كان خليفته يلقيها بشكل آليّ ، في كثير من الأحيان!

لم يسعفه الحظّ بمرافقة قافلة بريّة عائدة إلى الشرق ؛ بسبب تهديدات البرابرة القوط لقوافل المسافرين ، بعد وصولهم إلى مناطق سالونيكا ، وتراقيا .

طوال رحلة العودة إلى الديار على متن سفينة يونانيّة ، لم تبتعد ، كثيرًا ، عن الشواطىء الترامية ، سيطر على تفكيره هاجس الحفاظ على دين الأسلاف ، في هذا الخضمّ من الأمواج العاتية التي تحيط به ، من كلّ حدب وصوب ؛ فالمسيحيّون بمختلف فرقهم ، ومجموعاتهم المتناحرة ، يكسبون المزيد من المؤمنين ، كلّما بزغت شمس يوم جديد ، وحتى

اليهوديّة ، المنغلقة على ذاتها ، تحوّل إليها بعض السلاميّين المنتشرين على طريق العربيّة السعيدة!

كان يسأل نفسه ، وهو يتأمّل الأمواج المتلاطمة التي تضرب السفينة : ما بالها ديانة الأسلاف؟ ولماذا ينكمش أتباعها ، يومًا إثر يوم ، وكأنهم في طريقهم إلى التلاشي والذوبان في بحر واسع الأرجاء؟!

بعد سنوات ، وحين كان معتكفا في غار الجبل ، قال لي ، أنا حنبل ، إنه رأى بعينيه ، في بعض الموانىء التي استراح فيها ، كيف أحرق أتباع إله معيّن معبدَ أتباع إله آخر . وأردف متسائلًا :

- كيف يمكن لمؤمن أن يفعل ذلك ، والدين ، أصلًا ، طريق لسعادة البشر ، وخيرهم ؟! كيف يمكن للخير المطلق أن يكون ذريعة للقتل والحرق والضغائن؟!

أسئلة كثيرة كانت تجتاح رأسه ، وهو يرى معابد حُوِّلت ، بالحديد والنار ، من عبادة إله إلى عبادة إله آخر ، يحبّه هذا الإمبراطور الرومانيّ ، أو ذاك القيصر .

وفي أنطاكيا شهد ، بأمّ عينيه ، معارك من نوع آخر - كما قال لي - أبطالها من أصحاب النِّحلة المسيحيّة ذاتها ، يصطرعون فيما بينهم ، حتى في الشوارع ، بالعصيّ والسكّاكين والزَّرَد ، حول طبيعة إلههم ؛ إن كان بشريًا أصبح إلهًا؟ أم كان إلها ، منذ الأزل ، ثم ظهر على شكل إنسان؟ أم أنه مجرّد إنسان صالح؟!

قلت له :

- *أيها المبجَّل ، السلاميّون مسالمون ، في طبعهم ، تحيّتهم سلام ، وعيشهم سلام ، وموتهم سلام ، ربما ، هذا السلام هو سبب تحوّل بعضهم نحو ديانات قويّة ، في زمن علا فيه صوت القوّة والانتقام ، على صوت السلام .*

قال :

- *الدين هو السلام ، وحين ينحجب السلام تكون القوّة ، ويكون الانتقام!*

قلت له :

- *هل جادلت الأنطاكيّين ، أيها المبجّل؟*

قال :

- *الأنطاكيّون ، يجادلون المسيحيّين المخالفين لهم ، وقد يدخلون في مناظرات مع اليهود ، أمّا نحن فلا يجادلوننا . . . يعتقدون ، ساذجين ، بأننا نعبد الحجارة ، ونسجد للأصنام ، ونضحّي بالبشر ، ولذلك عندما نكلّمهم نشعر بأنهم لا يرغبون بشيء ، سوى قتلنا ، وقتلنا ، فقط!*

حين وصل قصيّ إلى تدمر ، في تلك الليلة الصيفيّة العصيّة على النسيان ، كانت المدينة تغطّ في نوم عميق . بدا الشفق الكاذب ، وكأنه إشارة إلهيّة لما ينتظره ، فتفاءل خيرًا ، وأتى من فوره إلى معبد اللات ، فأيقظني ، أنا حنبل ، وكنت ، يومها ، مدبِّر شؤونه ؛ فأسرجت له المكان ، ووقفت أرقبه ، من

بعيد ، وهو خاشع في حضرة الربّة ، يحرق البخور ، ويقرأ الصلوات ، بصوت خفيض :

– *يا سيّدة المعبد ، يا ربّة السلام ، باركي يومنا ، باركي شهرنا ، باركي عامنا ، وليكن رمحك هذا من أجل السلام .*

ومنذ تلك الليلة ، اتَّخَذني مريدًا ، ومساعدًا له ، لم أفارقه ، يومًا واحدًا ، حتى صعوده إلى الجبل ، معتكفًا في الغار!

ولم تمضِ أيام قلائل على عودة قصيّ ، حتى عاد أذينة بن خيران ، هو الآخر من البرّيّة . كان لقاءًا حارًا طويلًا ، في معبد اللات ، تحدّثا فيه حول كلّ شيء : سنوات دلفوي ، وما جرى فيها ، وتدمر ، وشابور ، والجيش الكبير ، والقبائل ، وتنصيب أذينة ، ملك ملوك العرب .

كان قصيّ ، في معظم الأوقات ، مستمعًا ، وكان أذينة هو المتحدّث ، وفي المساء ، حين كان يهمّ بالمغادرة ، قال أذينة ، بما يشبه الأمر :

– *ستُرسَّم ، غدًا ، أفكلًا أكبر لمملكة تدمر ، وسيكون مقامك في معبد بل .*

ردَّ قصيّ .

– ولم لا أبقى في حمى اللات؟

قال أذينة :

– *اسمع يا قصيّ . . سأقصّ عليك أمرًا مهمًا : صحيح أن اللات هي ربّتنا ، وسيّدة معابدنا ، جميعًا ، ولكن الإله ، بل ،*

هو حامي المدينة ، وشفيعها ، والأفكل الأكبر لا ينبغي أن يقيم خارج معبد بل ، مهما كان السبب .

أطرق قصيّ ، قليلًا ، ثم قال :

- بل هو ابن اللات ، ونحن ، بوصفنا أسرة ، اختصصنا باللات ، من دون جميع الأرباب .

قال أذينة :

- أنت أفكل للّات ، ولزوجها ، ولا بنها ، ولجميع الآلهة التدمريّة .

صمت قصيّ ، وهزّ رأسه ، دليل الموافقة ، فتابع أذينة حديثه ، وهو يسير الهوينى إلى حمى اللات ، وقصيّ يسير إلى جانبه :

- قبل سنوات طوال ، وكانت أسرتنا حديثة العهد بتدمر ، زارنا القيصر ، جرمانيكوس ، وليّ عهد الإمبراطور ، طيباريوس ، وعقد اتفاقًا مع ملوك الصين ، بوساطة البارثيّين ، أوكلت بمقتضاه تجارة الحرير ، عبر خليج الكلدانيّين إلى التدمريّين ، ولتقديس هذا الاتفاق ، شيَّد الأسلاف ، أجداد القبائل التدمريّة الأربع ، معبدًا للإله ، بل ، ورفعوه إلى أعلى المراتب ، متقدّمًا على والده ، بعل السماويّ ، وكانت كلّ الثروات التي حصل التدمريّون عليها من تجارتهم ، عبر الأجيال ، مكرّسةً لهذا الإله ؛ ومن أجل هذا ، بالضبط ، أرسلنا الوالد ، أنا وأنت إلى دلفوي ؛ لكي نصبح كاهنَين له ، وننهل من علوم كاهنه

الأكبر ، بلوتارخ ، ونتبارك بأبخرة الأبديّة ، المنبعثة من سرّة الأرض!

أمام الحرم توقّفا ، ومدّ قصيّ يده لأذينة مصافحًا ، وهو يقول بحماسة مفاجئة :

- سنثبّت هذا الدين معًا ، سنقف في وجه العواصف والأعاصير التي تحاصره من كلّ حدب وصوب ، معًا .

شدّ أذينة على يد قصيّ بقوّة ، ثم رمقه بنظرة متفحّصة ، وحين رأى إصراره ، ضمّه إلى صدره ، وتعانقا بقوّة .

في اليوم التالي ، اصطفّ في معبد بل كبراء المدينة ، بأزيائهم الزاهية ؛ يتوسّطهم أذينة بن وهب اللات ، وانتصبت أمام المذبح مباخر عديدة ، يتوهّج فيها الجمر ، وطاولات عليها الثمار المقدّسة ، وأكواز الصنوبر ، وفي العمق كانت الجوقة تعزف على النايات أنغامًا هادئة ، وقيان المعبد يضربن على الدفوف ضربات متواترة ، وهن ينشدن للإله ، بل :

- الكلُّ في نوم عميق
يا سيّد الكون السحيق
يا منقذًا منّا الغريق
يا مرسلًا ريح الطريق
الكلُّ في نوم عميق
يا سيّد البيت العتيق

ولم يمضِ وقت طويل ، حتى دخل أذينة بن خيران إلى

المعبد ، بصحبة نائبيه ، شقيقه ، ورود ، وابن عمّه ، معن ، وهم في لباس الحرب الكامل ، وبعد أن صافحوا الجميع ، وقفوا إلى جانب أذينة بن وهب اللات .

بعد ذلك ، خرج قصيّ من قاعة الأفكل إلى الحرم ، وهو يرتدي الثوب الأبيض القصير ، والعباءة الارجوانيّة المذهَّبة ، وقبَّعة اللبد المخروطيَّة المزيَّنة بالحرير القرمزيّ ، والأحجار الكريمة ، وكنت أتبعه ، أنا حنبل ، وباقي الكهنة ، والخدم ، حاملين مظاريف البخور ، وآنية الطقوس الذهبيّة والفضيّة .

كانت الجوقة قد توقّفت عن الإنشاد ، فور دخولنا ، فوقف قصيّ في المقدّمة ، مواجهًا الحشد ، ولم يلبث أن بدأ بقراءة صلاة الرسامة :

- أيْ بل ، يا سيّد الأحكام
أيتها اللات يا ربّة المعبد
ويا بعل السماويّ ، يا سيّد الأبديّة العظيم
من أجلكم جميعًا أُحرق هذا المرّ واللبان بخورًا
وأحرق صمغ الأرز هذا الذي تحبّون رائحته
فامتلؤوا من هذا العبق الزكيّ
ولتحكموا بالعدل ، وأنتم جالسون على عروشكم
أيْ بل ، اجلس على عرشك ، واحكم
أيْ بل ، كن حاضرًا هنا ، في بيتك الكبير هذا
وليكن الحقّ في كلامي

وفي كلّ ما سأعمل
وفي كلّ ما ألتمسه ؛ من أجل ذلك

كان عبق البخور قد ملأ المكان ، وعلت الأناشيد مجدَّدًا ، وشارك فيها ، هذه المرَّة ، باقي الكهنة بأصواتهم التي علت ، وعلت ؛ حتى ملأت المكان خشوعًا ورهبة ، وحمل قصيّ المبخرة ، وطاف بها متمتمًا بالصلوات ، فوق رؤوس رجالات المدينة ، وسادتها ، والذين كان واحدهم ينحني ، حين يصل الأفكل إليه .

بعد ذلك ، طرح قصيّ عنه المبخرة ، وفتح ذراعيه ، مقابل نصب الإله ، بل ، وقد جحظت عيناه ، وبدأ العرق يتصبّب منه ، ثم ركع أمام النّصب ، وقد تخشَّبت أعضاؤه ، وسرت في جسده رِعدة شديدة ، لم يشهد أحد مثلها ، من قبل ، في تدمر ، فانهمرت الدموع على وقْع الدفوف والأناشيد الإلهيّة ، وكان الهاتف الأوّل الذي يتلقّاه قصيّ من الإله ، بل ؛ فنطق بصوت كأنه ليس بصوته :

- *مباركٌ أذينة بن خيران ، مباركة تدمر ، مبارك يومكم ، مبارك شهركم ، مباركة سنتكم .*

كانت طريقة التنبّؤ هذه جديدة على تدمر ، إذ لم يرَ التدمريّون ، قبل ذلك ، ولا السوريّون ، كما أظن ، أفكلًا يتلقَّى النبوءات من الإله ، بل ، وينطق بصوته ، كما حدث في يوم الرسامة . كان الإله ، بل- كما اعتدنا أن نرى- يتنبّأ وحده ،

ومن دون كاهن ، أو وسيط ، فحين يريد إعلان أمر ما ، يبدأ بالتحرّك على قاعدته ، وعندها يرفعه الكهنة ؛ فإذا لم يرفعوه يبدأ بالتعرُّق ، والتحرُّك بعنف أكثر ، وما إنْ يرفعوه ، ويتناقلوه ، حتى يقودهم ، وهو يوجّههم في جميع الاتجاهات بالقفز من واحد لآخر ، وفي النهاية يجابهه الأفكل الأكبر ، ويسأله حول القضايا كافّة ، فإذا استهجن الأمر المطروح عليه ، تراجع للوراء ، أمّا إذا وافق عليه ، فإنه يدفع بحامليه إلى الأمام ، على طريقة سائقي العربات .

والحقّ ، أن طريقة التنبّؤ الجديدة هذه ، كانت أشد وقعًا ، وأقوى تأثيرًا على المشاركين في الطقوس والأسرار ، ولكنها لم تكن متاحة لكاهن آخر ، غير قصيّ!

زنوبيا

عاشت زنوبيا في تدمر ، سنوات يفاعتها الأولى ، قبل أن يرسلها والدها إلى أكاديميّة لونجينوس الحمصيّ ، في أثينا ، وهي الأكاديميّة عينها التي مكثتُ فيها ، أنا حنبل ، عامين كاملين ، تلقّيت خلالهما فلسفة المعلم ، أفلاطون ، وتعرّفت فيها على مالكوس البتانيّ الذي ستتوطَّد علاقتي به أكثر ، بعد أن جمعتنا الأقدار من جديد ، في روما .

تلقّت زنوبيا ، هناك ، دروس الفلسفة ، والبلاغة باليونانيّة ، واللاتينيّة ، وكانت تجادل الفلاسفة والسفسطائيّين ، والروّاقيّين ، وحتى المسيحيّين ، واليهود . وثمّة من يقول ، إن معلمها ، لونجينوس ، نفسه تأثّر بأفكارها ، وقدرتها الكبيرة على الجدل ، وحجتها بالإقناع ؛ بل ، ويقال أيضاً ، إنه أصبح من المعجبين بأفلوطين ؛ بفضل شروحاتها ، بعد أن كان لسنوات طوال يسخر من تلك التعاليم .

ولكن مالكوس البتانيّ ، وكان في الحلقة الدراسيّة نفسها مع زنوبيا ، قال لي ، أنا حنبل ، إن المعلم ، لونجينوس ، لم يكن يدرك جوهر تعليم المعلم ، أفلوطين ، وكان يحسبه ثرثارًا ،

ومنتحلًا ، حتى ممّن لا يستحقّون الانتحال ، شأنه في ذلك شأن كثير من فلاسفة اليونان ، الذين زعموا ، زورًا وبهتانًا ، أنه كان يسرق من تعاليم نومينيوس الأفامي . أمّا بشأن تغيير وجهة نظر لونجينوس بأفلوطين ، فجزم بأنه أسهم بالجزء الأكبر من ذلك ، عبر كثير من المراسلات التي لم تنقطع بينهما .

ولم يشأ مالكوس أن يؤكّد ، أو ينفي ، إن كان لزنوبيا دور في تغيير موقف لونجينوس من أفلوطين ، ولكنه أقرّ بأن ابنة زباي كانت من المؤمنين بتعليم أفلوطين ، منذ أن كانت في أثينا ، وأنه خاض ، هو شخصيًا معها بعض الجدل ، حين كانا معًا في الأكاديميّة ، وكانت من القلّة القليلة التي فهمت حقيقة ذلك التعليم ، برغم كلّ ما كان يشاع حوله ، من جدل عقيم ، وأخذ وردّ .

ويبدو أن زنوبيا في تلك المرحلة ، حصلت على إشادات من معلّميها ، كما قال لي مالكوس ، جعلتهم يتنبّأون لها بمستقبل فلسفيّ واعد ، حين وضعت في تلك المرحلة كتابًا أطلقت عليه اسم «الغاية» ، ناقشت فيه باستفاضة أطروحات أفلاطون المتعلّقة بالفضائل الأربع : الحكمة والعفّة والشجاعة والعدالة ، مضيفة إليها فضيلة خامسة هي الخيريّة ؛ إذ شرحت كيف أن الخيريّة فضيلة ملازمة للإنسان السويّ ، وللفطرة السليمة ، معارضة بذلك نظريّة المعلّم بأن الإنسان ميّال ، بطبعه ، إلى الشرّ!

والحقّ ، أنني لم أفهم ، حتى الآن ، وقد تجاوزت العقد السادس من عمري ، لِمَ يعتقدون ، هنا في روما ، بأن زنوبيا كانت من سلالة كليوبترا ، ملكة مصر القديمة؟ ولِمَ يلصقون بها شبهة ممارسة السحر ، وامتلاك القوى الخفيّة؟ فوالداها معروفان من الجميع ، وهما تدمريّان أصيلان من قبيلة بني متبول ، إحدى القبائل الأربع المؤسِّسة للمدينة ، في عهد الإمبراطور ، طيباريوس ، وكانت من أتباع الفلسفة والتفكير ، ولم يعرف عنها ممارسة الكهانة ، في أيّ يوم من حياتها .

لقد أسرت زنوبيا قلوب التدمريّين ، منذ عودتها إلى المدينة ؛ ليس بسبب سواد عينيها العميق ، أو بياض أسنانها الناصع ، كاللؤلؤ المنظوم ، أو سمرتها الصافية ، أو قوّة ملامحها ، فحسب ، بل ؛ لأنها مثّلت أمل كثيرين ، في عبور النفق الذي كانت تمرّ به المدينة ، بعد اقتراب خطر شابور من دورا أوروبس ، وغرق روما في مشاكل الحكم!

كان شابور قد وجّه قوّاته باتجاه تدمر ، ووضع عينيه على دورا ، بعد أن قضى على مملكة الحضر ، وكان ينتظر فرصة سانحة ؛ للانقضاض على التخوم الشرقيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة التي اجتمعت عليها النوائب ، من كلّ حدب وصوب ، بعد أن سرى فيها طاعون الجشع إلى الحكم ، منذ اغتيال الإمبراطور ، ألكسندر سيفيريوس .

لقد انتقل هذا المرض من جنرال إلى آخر ، وسرى بينهم ،

كما يسري الوباء الأسود ، حتى إن البعض أحصى نحو خمسة وعشرين جنرالا حملوا لقب الإمبراطور ، في تلك الآونة ، محاولين فرض سلطة إمبراطوريّة وهميّة على هباء مشتّت مجزّأ .

وقد روى تجّار تدمريّون عادوا من روما ، حاملين خيبتهم وخسائرهم ؛ قصصًا أدمت القلوب عن الفوضى التي عمّت العاصمة ، وكيف حوّلتها صراعات الضبّاط إلى ساحة لمعارك صغيرة ، في حين كان البرابرة يُحكمون حصارها من الجهات الأربع ؛ طمعًا باقتناص قطعة من هذا الجسد المترامي ، فور الإعلان عن موته .

ومن سخريات هذا الزمن ، أن جنرالًا من بلادنا نصّب نفسه إمبراطورًا ، في حمص المجاورة ، باسم أورانيوس أنطونينوس ، سكّ عملة باسمه ، وأشاع أنه إمبراطور الشرق القادر على وقف هجمات شابور ؛ ولكن هذا الإمبراطور المغوار ، فرّ من عاصمته ، حين علم بأن أذينة بن خيران قادم إليه ؛ لتهنئته بالمنصب الجديد!

في أحد الأيّام زار أذينة قصيًا في المعبد ، واختليا في غرفة الأفكل ، وبعد قليل ، خرج أذينة ، وعلى وجهه علامات الغضب .

سألتُ قصيًا :

- أيّها المبجَّل ، ما الذي يغضب الملك؟

فأجاب :

- ثمّة من يريده في مجلس الشيوخ ، أن يرسل مبعوثًا لشابور ، يعرض عليه الهدايا والصلح ، وكان يريد مشورتي في الأمر .

لم يقل لي قصيّ بماذا أشار عليه ، ولكنني علمت ، فيما بعد ، أن وفدًا من تجّار تدمر المعروفين بعلاقاتهم الوثيقة بتجّار فارس ، ذهبوا إلى بلاط شابور ، وقدّموا له الهدايا ، باسم ملك الملوك أذينة ، عارضين الصلح ، ولكن شابور تعامل معهم بكلّ جلافة وعنجهيّة ، وقال لهم حين قابلهم ، بعد أسبوع من الانتظار :

- مَن يحسب نفسه هذا النكرة؟! حتى يرسل لي الهدايا ، أخبِروه بأن يأتي ، من فوره ؛ ليسلِّم نفسه إلى جنودي ، وبعد أن يفعل ذلك ، أفكّر بأن أعفو عنه ؛ أو أعاقبه!

إذن ؛ قطع شابور أيَّ طريق للصلح ، ولم يعد أحدٌ يسمع صوت الذين كانوا وراء وفد الهدايا ، وفي هذه الظروف العصيبة ظهر أذينة بن خيران ، جنديًا من جنود اللات المقدَّسة ، وظهرت زنوبيا ابنة زباي ، مثل شعاع أمل لتدمر ، وللتدمريّين الراغبين في إيجاد منافذ أخرى للحياة المعطّلة ، فكانت تشارك في اجتماعات مجلس الشيوخ ، بصحبة والدها ، وكانت هي المتحدّثة في غالبيّة الجلسات التي تحضرها ؛ نظرًا لما تمتلكه من طلاقة لسان ، وبديهة حاضرة ، وقدرة على الإقناع .

في إحدى المرّات ، قالت لشيوخ المدينة ، وكان أذينة حاضرًا :

- *روما شمس غاربة ، أسد جريح أصيب في مقتل ، ولن يقوى على لعق جراحه ، والنهوض مجدّدًا ؛ لاستعادة هيبته المهدورة . روما لن تقدّم لنا شيئًا ، في حربنا المقبلة مع الذئب المتربّص ، شابور ، لن تستطيع حمايتنا ؛ ولذا ، لا بدّ أن نعتمد على عقولنا ورماحنا .*

في ذلك اليوم ، حضر أذينة إلى المعبد الكبير ، وقال لقصيّ ، بحماسة :

- *هذه هي امرأتي . سأتزوّج ابنة زباي .*

حينها ، تأمّل قصيّ ملامح أذينة ، مليًا ، ثم مضى إلى حرم الإله ، بل ، قبل أن يشير إليّ ، أنا حنبل ، بأن أحضر المبخرة المهيَّأة بصمغ الأرز ، ولم يمضِ وقت طويل ، حتى تلقّى إشارة الإله ؛ فأعلن بصوته :

- *مبارك زواج أذينة من ابنة زباي ، مباركة ابنة زباي ، مبارك أذينة بن خيران .*

في اليوم التالي عمّت الأفراح تدمر كلّها ، وعقد قصيّ قران أذينة ، ملك الملوك المتوّج ، على زنوبيا ، أولى ملكات تدمر ، والتي ظهرت في المعبد الكبير امرأةً لم يرَ المشرق كلُّه أنثى تفوقها جمالًا وحضورًا!

ولكن ، لم تعد الأفراح تكتمل في تدمر ، منذ زمن بعيد ،

فبينما كان فرسان القبائل يحتفلون بزواج ملكهم ، في البريّة المجاورة ، وصلت أخبار سقوط دورا أوروبس ، بيد شابور بن أردشير ؛ لتنكأ جراحًا غائرة ، لم تندمل ، منذ ثلاثين عامًا ، ولتعيد تذكير من نسُوا ، أو تناسَوْا ، بأن موتًا مقبلًا بدأ يلوح من جهة الشرق ، ولا بدّ من الاستعداد ؛ لمواجهته ، قبل أن يباغتنا كما باغت المدن الأخرى ؛ فتسلَّحت تدمر بكامل عُدَّتها ، وبدأت البعوث تصل من قبائل البادية معلنة ولاءها المطلق للمدينة ، وملكها ، وظهرت زنوبيا في زيّها العسكريّ ، إلى جوار أذينة في استعراضات الجيش ، راكبة فرسها الصهباء ، متدرّعة بدروع الفرسان الثقيلة ، حاملة رمحها ، بيدها اليمنى ، وعلى رأسها خوذة اللات المقدَّسة!

دورا أوروبس

روى لنا كاهن دورا الأكبر ، حين استقبلناه ومساعديه ، في معبدنا ، ما جرى لهم قبيل إحراق المدينة ، وكيف حاولوا ما يستطيعون تجنيبها المصير المفجع ، ولكن ، بلا جدوى!

قال ، والعبرات تكاد تخنقه :

- باغتتنا جيوش الفرس ، على حين غِرَّة . لم نكن نتوقّع أن نراهم غربيّ الفرات بهذه الكثافة ، إذ لا جسر قريبًا يعبرونه . حاول وفد من رجالنا وتجّارنا إقناع شابور بتجنيب مدينتنا المسالمة الدمار ، وأعلن رجالنا الولاء له ، وعرضوا عليه تسليم مفاتيح المدينة ، وذهبها ، وفضّتها ؛ لكنه رفض العروض والتضرُّعات كلّها ، وأصرّ على اقتحامها ، بحدّ السيف ، ولم يمهلنا الطاغية ؛ لكي ننقل معنا أشياءنا الصغيرة ، بل طلب منّا أن نغادر ، من فورنا ، إن شئنا السلامة ، فرحلنا باتجاه قبائل البدو التي أوصلتنا إلى تدمر ، وبقيت الحامية العسكريّة تدافع عن المدينة بالنّبال ، والنّبال فقط!

ولم يطل الوقت ، حتى وصل خمسة من فرسان الحامية ، نجوا من بين مئتين وخمسين مدافعًا عن المدينة ، قضوا احتراقًا

واختناقًا ، بعد أن أوقد جنود الفرس النار ، في قطع كبيرة من الصوف المشبع بالقار ، وألقوا بها في خنادق الرّماة!

كان ذلك شيئًا لم يروه ، أو يسمعوا بمثله ، من قبل ، لقد سبق وأن هيَّؤوا أنفسهم ، كما قالوا ، لاحتمالات الموت كلّها ، سواء بالسيوف ، أو بالرماح ، أو بالنّبال ، وحتى بالشنق والصلب ، ولكنهم ، لم يتوقّعوا أن يموتوا مختنقين بأبخرة سُود هاجمتهم ، وهم في سراديبهم ، أو محارسهم!

وقد روى فرسان دورا قصصًا غريبة ، عن جنود ماتوا ، وهم نيام ، وآخرين لم يدركوا ما جرى لهم ، فور استنشاقهم الأبخرة الشيطانيّة ؛ فظلّت الدهشة مرتسمة على وجوههم ، وفي حركات أيديهم المستغيثة ، أو المودّعة!

لم يفهم هؤلاء الفرسان ، كما كانوا يقولون لمستمعيهم ، سبب دأب جنود شابور على إحراق المدينة ، فبعد أن انتهوا من نهب البيوت والمعابد ، وتجريدها من الذهب والحليّ والأثاث والآنية ، أشعلوا النيران فيها ، ولم يغادروا ، حتى تثبَّتوا من أن النيران أكلت كلّ شيء ، ومن أن أسقف الأبنية ، وجدرانها ، لم تعد قائمة .

والغريب من أمر جنود شابور- كما قال أحد الفرسان- أنهم أحرقوا ، أيضًا ، معبد أناهيت ، إلهة الفرس الكبرى الذي بناه التدمريّون لها ؛ لكي يقيم عبَدتُها من الفرس الزائرين طقوسها ، كما يحبّون!

ولم ينقطع ، طوال شهرين ، وصول العائلات التدمريّة النازحة من دورا ، ومَن أتى معها من أبناء الجاليات اليهوديّة ، والمسيحيّة ، والموظّفين الرومان . وكان لكلّ قادم قصّة يرويها : عن بيوت نُهبت ، وأُحرقت ، أو عن فتية صغار قُتلوا ، أو عن حرائر سبين ، واشتراهنّ نخّاسون ، من أرمينيا!

وقد اعتاد تجّار الأرمن على قبض أموال جمّة من التدمريّين ، لقاء افتداء الأسيرات ؛ فالأرمن- كما بات الجميع يعلمون- وبسبب خضوعهم للفرس ، احتكروا هذه التجارة ، منذ ثلاثة عقود ، وأحرزوا منها ثروات طائلة ؛ لما عرفوه عن التدمريّين ، والحضريّين ، والميسانيّين ، من استعظامهم استرقاق نسائهم ، وبذلهم الغالي والنفيس ؛ في سبيل افتكاكهنّ .

كانت دورا ، قبل جلوس بني ساسان على تخت طيسفون ، درّة مدن التدمريّين ، على الفرات ، وأجمل معاقلهم ، في تلك النواحي . وقد أخبرني من عاش عصورها الزاهية ، بأنها كانت قبلة تجّار العالم كلّه . وفي أسواقها العامرة ، كان يباع ما يخطر على البال ، وما لا يخطر ، من بضائع الشرق والغرب . وكان فيها ، للكثير من البلدان والممالك ، جاليات تجاريّة مقيمة ، تعقد الصفقات ، وتنتظر البضائع ، وتسلّمها ، وفق قانوننا التجاريّ ، المكتوب على أحد جدران الأغورا ، وسط المدينة .

وكنت ترى فيها معابدنا ، تقيم الطقوس لجميع الآلهة التدمريّة ، وبالقرب منها كنيس كبير لليهود الذين كانوا

يتاجرون مع بلاد الهفتاليّين ، وكنيسة للمسيحيّين الأنطاكيّين ، وأخرى للأسروينيّين ، ومعبد لإلهة الفرس ، أناهيت ، ومعبد لميثرا الرومانيّ ، ومعابد أخرى لآلهة اليونان!

وبرغم المحنة الطويلة ؛ محنة الفرس الساسانيّين ، ونيرانهم التي التهمت كثيرًا من حواضر هذه البلاد ، لم تتوقّف الحياة في دورا ، تمامًا ، ولكنها خفتت ، كثيرًا ، عمّا كانت عليه في سابق الأيّام ، حين كان ليلها يتصل بنهارها ، كما يقول عجائز المدينة . ومع ذلك كنتُ أرى ، أنا حنبل ، حين أزورها ؛ لتفقُّد معابدنا ، كثيرًا من التجّار ، وبضائعهم القادمة من مختلف البلدان . وكانت زيارتها من أمتع الأشياء ، وأحبِّها إلى نفسي ؛ لموقعها المبهج على ضفّة الفرات ، وجمال شوارعها ، ودورها ، ومعابدها الكثيرة المزيَّنة بالرسوم الملوّنة التي لا نظير لها في أيّ مكان آخر .

وأستذكر الآن ، وأنا أخطّ هذه السطور ، في منزلي القائم على أكمة غربيّ روما ، والمشرف على نهر التيبر ، كيف أقنعت المبجَّل قصيًّا ، ذات مرّة ، بأن يرافقني في إحدى زياراتي إلى دورا أوروبس ، وكيف وافق ، على غير عادته ؛ لأنه اشتاق لصوت النهر ، كما قال!

لقد حدّثني ، ونحن جالسان نتأمّل شروق الشمس ، من الأفق السرمديّ الممتدّ وراء المدينة ، قبل أن ندخل إليها ، عن لحظة وصوله إلى دورا ، فجر يوم ربيعيّ ، مع والده ، وبعض

الفارّين من مدينة النظيرة ، وكيف زاروا قبل أيّ شيء معبد الربّة ، ذات الحمامتين ، وكيف أقاموا الطقوس لها .

قلت له يومها :

– *أيها المبجَّل ، ما أصل هذه الطقوس؟*

قال :

– أصلها من معبد الربّة الكبرى ، في منبج ، هيرابوليس ، لقد صحبتُ والدي ، حين كنت طفلًا إلى ذلك المعبد ، وشاركت في موكب أبناء الولاية العربيّة ، وولاية سوريا ، وفينيقيا ، إلى نهر الفرات ، وجلبنا منه المياه المقّدسة ، وسكبناها في ثقب المعبد!

قلت :

– *ما تفسير هذا الطقس الغريب؟*

قال ، وكأنه يستعيد حديثا قديمًا من منسيَّاته :

– *كما تعلم ، ياحنبل ، نحن جنس أتى من سلالة نيحو الذي يسمّيه الإغريق دوكاليون ، فالبشر الأوائل كانوا مغالين إلى أقصى الحدود ، ولهذا اقترفوا الآثام المخزية ، ولم يحفظوا عهودهم ، ورفضوا إجارة الغرباء ، وردّوا أبناء السبيل . وقد ارتدّت أعمالهم عليهم ، وأصابتهم مصيبة كبرى ، إذ تفجّرت ، فجأة ، المياه من باطن الأرض ، وهطلت عليهم الأمطار غزيرة ، وتشكّلت الأنهار الكبرى ، ومنها نهر الفرات العظيم ، وغمرت بمياهها الأرض ، وهلك البشر ، جميعًا . وكان نيحو هو الإنسان*

الوحيد الذي نجا ؛ لكي يؤسّس ذريّة صالحة ، بفضل حكمته ورأفته!

قلت مستغربًا :

- وكيف نجا نيحو ، أيها المبجَّل ، وأنت قلت إن الطوفان أهلك البشر ، جميعًا؟!

قال :

- كان يملك فُلكًا كبيرًا أصعد إليه أولاده وزوجاته ، ثم صعد بعدهم ، ثم رأى أزواجًا من الحيوانات تدبّ على الأرض ، وتسعى إليه ، فقبلها كلّها ، ولم يؤذه أيٌّ منها ، بل إن صداقة عظيمة نشأت بينه وبين الحيوانات ؛ بأمر من بعل السماويّ . وقد طفوا ، جميعًا ، في هذا الفُلك الوحيد ، طوال مدّة الطوفان ، وبعد ذلك انفتحت فجوة كبيرة في منبج ، غارت المياه كلُّها فيها . أما نيحو فقد بنى معبد منبج ، بعد هذه الأحداث على الفجوة ، وقد رأيتها بعينيّ ، وهي صغيرة جدًا!

قلت :

- وهل كانت الفجوة كبيرة ، فيما مضى؟

قال :

- لست أدري ، ما رأيته عيانًا ، أنها كانت صغيرة ، وتقام طقوس جلب المياه من الفرات إليها ، مرتين في العام .

قلت :

- لماذا مرّتين؟

قال :

– لكي تكون ذكرى مزدوجة ، للكارثة التي حلّت ببني البشر ، وللنعمة التي نزلت عليهم في آنٍ معًا!

حين وصلنا إلى دورا ، كان أوّل شيء فعلناه زيارة النهر ؛ لملء إنائين صغيرين ، والتوجُّه بهما إلى معبد الربّة ، أترغاتس ، ذات الحمامتين ، حيث أدَّيْنا ، معًا ، طقس إراقة المياه ، أمام تمثالها .

وخلال إقامتنا التي لم تطل ، كثيرًا ، في المدينة ، كان قصيّ يُمضي غالب أوقاته ، متوكّئًا على عصاه ، قرب مياه النهر ، متأمّلًا الأمواج المتلاحقة التي لا تنتهي . وحين كنت أعود ؛ لأصطحبه إلى المعبد ، كان يدعوني بيده للجلوس إلى جانبه ، وكنت أُمضي معه ما تبقّى من يومي ، في فسحة التأمّل هذه ، هكذا ، من دون كلام ، حتى تغرب الشمس!

أذكر أنني سألته ، حين دعاني للجلوس ، في المرّة الأولى :

– أيها المبجَّل ، ما الذي تراه في النهر؟

قال :

– حدِّق جيّدًا في الأمواج ، واختر من بينها موجة واحدة ، تأمّلْها ، تتبّعْها ، وأصْغِ لما ستقوله لك ، قبل أن تودِّعك .

قلت :

– بين هذا العدد الهائل من الأمواج ، كيف لي أن أعرف صوت موجتي؟

قال :

- أَصغِ سمعك جيّدًا ، فهي تخاطبك أنت ، ولا أحد سواك .

لم أنجح ، مطلقًا ، في العثور على موجتي! كان الأمر مملًا ، إذ كلّما اخترت موجة سرعان ما كانت تتّحد ، بعد قليل من سيرها ، بموجة أخرى ، فلا أتبيّن بعدها موجتي الأولى ، فأتابع الموجة المتحدة ؛ لأجدها وقد اتّحدت ، من جديد ، بموجة أخرى!

التفتُّ نحو قصيّ ؛ فألفيته ينظر إليّ . وحين التقت العيون ،

قال :

- أَصْغِ إلى النهر .

أصختُ سمعي ، وأنا مغمضٌ عينيّ ، فطرقتْ أذني أصوات لم أكن منتبهًا إليها ، من قبل . ثمّة صوت للأمواج لم أكن أتميّزه ، تمامًا ، يمضي غير عابىء بشيء ، وبالقرب من مكان جلوسنا ، هنالك صوتُ حفيف أشجار ، تداعبها نسماتٌ خفاف ، وفي الأفق ، صوتُ مئات العصافير التي يعلو صخبها على أيّ صوت آخر .

فتحت عينيّ ؛ فغابت الأصوات جميعها ، وظهرتْ لي موجة كبيرة تسرع في عدوها ، نحو الشاطىء ، ولم أستطع تمييز صوتها ، إلاّ حين تحطّمت على ضفّة النهر .

سألني قصيّ :

- *ماذا قالت لك؟*

قلت :

- *لا شيء ؛ فقط تلويحة وداع!*

قال :

- تلك موجة لم تتّحد بموجة أخرى ؛ فكان مصيرها الفناء!

في اليوم الذي سبق عودتنا إلى تدمر ، مشينا معا ، على طول الضفّة ، باتجاه الشمال ، وحين ابتعدنا ، قليلًا ، عن المدينة ، تحلّق حولنا رجال يرتدون الأبيض ، خرجوا لتوّهم من مياه النهر ، وركعوا أمامنا ، طالبين أن نباركهم ، حين رأوا زيّنا الكهنوتيّ ، فتلا قصيٌّ على مسامعهم صلاة النهر ، وهم خاشعون :

- *أيها النهر ، يا محيي الموات*

حين حفر مجراك بعل السماويّ ، أقام أشياء طيّبة على ضفافك

وفي طيّات غمرك ، بنى أبجل مسكنه العميق

لقد أنعم عليك بعل بوفرة مياه ، لا نظير لها

ووهبك الغضب ، والجلال ، والرهبة

فيا أيها النهر العظيم ، أيها النهر المجيد

يا نهر معبد الربّة المقدّس

مياهك تفرّج الغمّة فتقبّلهم برأفة

وخذ ما في أبدانهم ، واسفحه على شطآنك
وأغرقه عند ضفافك ، وغطّسه في أعماقك

وأذكـر أنه قـال لي ، من دون أن أسـأله ، ونحن في طريق عودتنا إلى تدمر :

- *البركة في دورا مضاعفة!*

لم أسأله ، حينها ، عن أيّ بركة يتحدّث ، ولم يزد هو على ما قال ، ولكنني عدت لتذكيره بهذا الحديث ، حين وصلتنا أخبار الكارثة ، فقال :

- *حريق دورا لن ينطفىء . سيحرق من أضرموه ، أيضًا .*

حديث الآلهة

كانت أجواء الحرب التي أشاعها اقتراب شابور من تدمر نذير شؤم له ، فالحرب- كما كان يقول- خسارة خالصة ، لا أحد يربح فيها ، بما في ذلك الطرف المنتصر!

وأشدُّ ما كان يثير غضب قصيّ ، وحزنه في آن معًا ، تدريع تماثيل الآلهة ، فحتى الإله ، بعل السماويّ ، أصبح مدرّعًا يحمل الأسلحة في تدمر!

قال لي ، ذات مرّة ، بحنق :

- *كيف لإله السلام أن يحمل السلاح ، وأن يتدرّع بدروع الحرب؟!*

قلت :

- *أيها المبجَّل ، كلُّ الآلهة مسلَّحة بالسيوف والرماح ، منذ أيّام السلام ، وليس الآن ، فقط .*

قال :

- *هي سيوف ورماح الحماية ، غير المسنَّنة ، أمّا دروع الحرب فلا ترمز إلاَّ لضعف الآلهة ، وليس إلى قوّتها!*

كان هذا الحديث مناسبة لأن يشرح لي قصيّ شيئًا عن

مفهوم الخير المطلق الصادر عن الآلهة ، وعن الفرق بين آلهتنا ، وآلهة اليونان . فعند اليونان- كما قال- ثمّة آلهة لا يصدر عنها سوى الخير ، وأخرى يصدر عنها الخير والشرّ ، وثالثة لا يصدر عنها سوى الشرّ . أمّا نحن السلاميّين ، فالألوهة عندنا مرتبطة بالخير . والشرّ هو من صنع الإنسان ، فقط .

قلت :

- أيها المبجّل ، لماذا إذن تمّت المحاكاة بين إلهتنا ، اللات المقدّسة ، والإلهة اليونانيّة ، أثينا ، إلهة الحرب؟

قال :

- المحاكاة بالتماثيل ، فقط ، ولكن شتّان بين اللات وأثينا ، اللات ابنة المبارك اسمه إلى الأبد ، ربّة السلام الحامية ، وهي الأمّ العظيمة التي تذبّ عن أبنائها المخاطر والرزايا ، وهي الربّة التي تكره سفك الدماء . أمّا أثينا فشأنها شأن آلهة اليونان ، لا تفرّق بين الخير والشرّ ، حتى في أفعالها الصغيرة ، وهي ، كما تعلم ، ابنة زيوس ، وولدت رغما عنه ، وليست زوجته ، كما نعتقد نحن .

قلت :

- أيها المبجّل ، ما سبب التوجّه إلى اللات؟ وما موقعها من إلهنا الواحد الذي لا يشبهه شيء ، ولا صورة ، ولا تمثال يصوّره ، ولا أحد بقادر على النطق باسمه؟

قال :

- *يا حنبل ، اللات شفيعتنا لدى ربّ العرش العظيم .*

قلت :

- *ولِمَ لا يكون لنا كتاب ، كما الأمم الأخرى ، يعلّمنا ديننا ، ويشرح لنا ما يجري حولنا؟*

قال ، وهو يتميّزني من الرأس إلى القدم :

- *وماذا يفعل الأفاكل يا حنبل؟ ماذا يفعلون؟!*

شعرت ، يومها ، بأنني نكأت جرحا عميقًا في نفسه ، فقد ظلّ شارد الذهن ، فترة ، كأنه يحدّث نفسه بأمر ما ، ثم غادر القاعة إلى غرفته ، دون أن يقول شيئًا ؛ ولكن ، وفي الليلة نفسها دعاني إلى غرفته ، وكان يحرق بخور صمغ الصنوبر ، أمام تمثال صغير لإلهتنا ، اللات ، جالسة على عرشها ، وبيدها رمح ، وعلى رأسها خوذة أثينا ، وتحت قدميها أسد ذليل .

قال ، وهو ينظر إلى التمثال :

- *اسمع يا حنبل ، أريدك أن تفهم معنى الوصيّة ، في أسرارنا الدينيّة ، فهي لا تُكشف ، إلا للخواصّ! ما دام السرّ أمرًا غير مكشوف ، مَنَعَت الوصيّة من كشفه لغير الذي أسعده الحظّ ، فشاهده ، هو بذاته ، والأمر هنا ليس مشاهدة ، بل اتّحادًا ؛ فالمُشاهد إذا تذكّر ما جرى له ، لدى اتحاده بالواحد ، حصلت فيه بذاته ، صورة عن الواحد ، والأفكل الحكيم يفهم الألغاز ، ويحقّق المشاهدة الحقّة في الخدور العلى ، وقد حلّ*

بحضرة القُدُس . أمّا الآن ، فأريدك أن تفهم كلّ حرف ، سأقوله لك ، وأن تحفظ كلّ اسم ستسمعه منّي ، فهذه الأسرار ، في عقيدنا ، لا تكتب ، بل تُنقل شفاهًا .

ثم نهض ، ووقف قبالتي ، وقال ، وهو يحدّق في عينيّ :

– حين أوجد المبارك اسمُه ، إلى الأبد ، إلهتنا ، اللات ، وإلهنا ، بعل السماويّ ، من نوره ، ترك لهما شؤون الكون ومخلوقاته ، يحكمان فيها ، ويقضيان بين البشر . يُحقّان الحقّ ، وينصران اليتيم والأرملة . أمّا هو ، فكان ينظر إليهما من عليائه ، ويتدخّل في بعض الأوقات ، إن وقع نزاع ؛ بسبب تضارب الأحكام ، ومع تكاثر البشر ، وانتشارهم في البراري والجبال ، تزوّجا ؛ فأنجبا إله تدمر ، بل ، وإله الشمس ، يرحبول ، وإله القمر ، عجلبول ، ثم أوجد بعل السماويّ ، من النار ، آلهة الجنّ السبعة ، سلمان ، وأبجل ، والرجيع ، ومنعم ، وأشر ، وسعد ، ومعن ، وشقيقتهم ، سلمى ، فكانوا جنوده المستورين ، الذين ينفّذون إرادته على جميع البشر . ومِن بين البشر اختار هؤلاء الآلهة ، سلالة من المصطفين ، يتصلون بهم ، وينقلون إليهم تعاليم الأرباب ، وأحكامهم ، وهؤلاء المصطفَوْن ، هم نحن الأفاكل والكهنة ، ويقضي العقد المقدّس الذي يربطنا ، نحن معاشر الأفاكل ، والكهنة بالآلهة ، أن لا نكتب شيئًا ، من تلك الأحكام ، على خشب أو رِقٍّ ، أو طين ، أو حجر ، بل نقولها ، فور صدورها من الملأ الأعلى ، وفعلُها يسري ، فور

خروجها من فم الأفكل ، بصوت الإله .

كانت هذه المرّة الأولى التي أعرف فيها ، أنا حنبل ، هذه الأسرار ؛ إذ لم يخبرني أحد من كهنتنا شيئًا عنها ، وكان الأمر يعني لي ، مجموعة من الطقوس ، نرثها عن الأسلاف ، ونورثها للأبناء والأحفاد ، دون أن نعرف ماهيّتها ، أو نغيّر فيها ، قيد أنملة!

لقد بات مفهومًا لي ، بعد أحاديثي الطويلة ، مع قصيّ ، معنى الطقوس التي نؤدّيها ، في معابدنا ، ومنها طقس حرق البخور ، ولماذا كان لكلّ إله نوع يحبّه من المُحرّقات؟ فالإله بعل السماويّ كان يحبّ بخور صمغ الأرز ؛ لأنه ولد في غابة جبل لبنان ، والإلهة ، اللات ، تحبّ بخور صمغ الصنوبر ؛ لأنها ولدت في غابة الجبل الأسود ، أمّا الإله ، بل ، فيحبّ أنواع البخور كلّها ، وارثًا ذلك من والديه ، الإلهين!

كان دأب قصيّ ، خلال خدمته ، تخليص طقوسنا ممّا لحق بها من قشور ، وزوائد ، ليست من صلب ديانتنا ، وكان التغيير الأبرز الذي قاده ، منذ أن أصبح أفكلا أكبر ، في تدمر ، إضافةً لطريقة التنبّؤ التي حدّثتكم عنها ، هو منع القرابين الدمويّة ، فمنذ أن رُسِّم في منصبه ، لم تُذبح شاة ، أو ثور ، أو كبش ، وكان يقول للمحتشدين ، أيّام الأعياد :

– أيُّ إله هذا الذي يحبّ إراقة الدماء؟! أيّ إله هذا الذي يفرح بموت الكائنات؟! إلهنا إله السلام والخير المطلق ، قرّبوا له

البخور ، وأريقوا الخمر المعتّق ، ولا تريقوا الدماء .

وكان يحضّ الكهنة على التأمّل اليوميّ الطويل ، وأن لا يكتفوا بممارسة الطقوس ؛ لأن الطقوس ستتحوّل- بحسب قوله- إلى عادة لا معنى لها ، إذا لم تقترن بفهم عميق لمعانيها ، وغاياتها العميقة ، وهذه المعاني لا تدرَك ، إلا بالتأمّل .

وحين يشرح لنا معنى التأمّل ، كان يقول :

- هو الطريق الوحيد إلى معرفة الواحد . . . من دون تأمّل ؛ سنغدو عَبَدة حجارة ، أو نحاس . . من دون تأمّل ؛ سيضيع الهدف ، وتتوه الغاية!

زثوس العربيّ

كان وقع أخبار هزيمة الإمبراطور الرومانيّ ، فاليريان ، ووقوعه أسيرًا ، بيد شابور ، في معركة الرّها ، مختلفًا بين التدمريّين ، كثير منهم شعروا بالشماتة ، وقلّة قليلة ، على رأسها قصيّ ، شعرت بدنوّ الخطر .

تلبَّس الشامتين وهمٌ ، بأن الصلح مع شابور ، أو في أقلّه ، التزام الحياد ، يمكن أن يجنِّب تدمر مصير شقيقاتها : كرك سباسينو ، والنظيرة ، ودورا أوروبس .

ولكنّ قصيًا كان يقول لأذينة الذي كثرت زياراته إلى المعبد الكبير : إن شابور ليس أهلًا للثقة ، ولا يمكن الركون إلى أيّ اتفاق قد يُعقد معه ، وإن خيار تدمر ينبغي أن يكون إلى جانب روما ؛ لأن قوّة روما هي قوّة لتدمر .

في إحدى الأمسيات ، وكنّا نؤدّي صلاة المساء ، لجميع الآلهة التدمريّة ، دخل علينا أذينة بن خيران ، مصطحبًا رجلًا مهيبًا ، يوحي لباسه ، بأنه من علية القوم ، وفور دخولهما ، انضمّا إلى الصلاة معنا ، أمام حرم الإله .

بعد انتهاء الصلاة ، توجّه أذينة وصاحبه ، مبتسمين إلى قصيّ ؛ فبادر الضيف ، قائلًا بلغتنا :

- أخبروني أن ابن عمّنا قصيًا هنا ؛ فقلت لا بدّ أن أزوره ؛ ليباركني .

كان اسم الرجل زثوس ، وهو تحوير يونانيّ لاسمه ، في لغتنا ، زيدو ؛ فزيدوس أصبح زثوس ، على اسم أحد أبناء الإله ، زيوس ، وكان والده من أشراف الولاية العربيّة ، وأحد ممثّليها السابقين ، في مجلس شيوخ روما ، وتربطه بقصيّ ، وأذينة ، صلة قرابة بعيدة .

فيما بعد ، علمت ، أنا حنبل ، من مالكوس البتانيّ أن زثوس هذا ، كان هو كافل المعلم ، أفلوطين ، في روما ، والمنفق عليه ، وأحد أخلص مريديه ، وأنه كان ، أيضًا ، طبيبًا وحكيمًا ، وصاحب أملاك واسعة ، في كمبانيا ، ولولا ولعه الشديد بالسياسة ، لكان واحدًا من كبراء فلاسفة عصره . وكان المعلم ، أفلوطين ، دائم الإلحاح عليه ، بأن يترك السياسة ، ويتفرّغ للفلسفة ، ولم يكن قادرًا على ذلك ؛ نظرًا لنفوذه الكبير ، في مجلس الشيوخ ، وصداقاته العميقة مع العائلة الإمبراطوريّة ؛ ومن أجل هذا حضر زثوس إلى تدمر ، بطلب من الإمبراطور ، غالينوس ، نجل فاليريان ، وشريكه في الحكم ، على القسم الغربيّ من الإمبراطوريّة ؛ ليحضّ أذينة على الدخول في المعركة ضدّ الفرس .

كانت حججه مقنعة لجميع من استمعوا إليه ، فالولايات الشرقيّة ستتعرّض للإفناء ، في حال سيطرت عليها قوّات شابور ؛ لأن ملك الفرس- كما قال- لم تكن لديه أيّ نية لرؤية جدار عامر ، في هذه البلاد ، وأفعاله تدلّ على ذلك ، ولم يكن

زنوس بحاجة لتعداد ما فعله شابور ، بعواصم الشرق التجاريّة ؛ لأن مآسيها كانت لا تزال حاضرة في الأذهان .

وكان للهاتف الذي تلقّاه قصيّ ، أمام مذبح الإله بل ، بحضور أذينة ، وزنوس ، وشيوخ تدمر ، وقادتها ، بعد أن أقام طقس ذبيحة بخور الصنوبر والأرز ، أعظم الأثر في اتّخاذ قرار الحرب على الفرس ، فالإله بل ، بارك حرب أذينة على شابور ، وبشّره بانتصار يلمع في الشرق ؛ ليضيء الغرب!

كانت جيوش أذينة التي ملّت التدريب ، تتحرّق لخوض معركة حيّة مع الفرس ، تثأر فيها لسنوات طوال ، امتدّت على عمر جيلين ، لم يترك أردشير ، ولا ولده شابور ، أيّ مدينة من مدننا في الخليج الكلدانيّ ، وفي حوض الفرات ، ولم يقبلوا من وفودنا أيّ دعوة للسلام ، أو الافتداء ، ولم يعلنوا عن حدٍّ يمكن أن يتوقّفوا عنده ؛ لنعرف حدود مملكة شرِّهم ، وكلّ ما عرضوه على شعبنا المسالم المنكوب ، في هذه المدن ؛ الرحيل عن الديار ، دون أخذ شيء ، أو الموت!

لم يمضِ وقت طويل ، حتى عاد أذينة من حرب شابور ، محفوفًا بقادة جنده إلى تدمر ، مظفَّرًا ، مكلّلًا بغار النصر ، مستعرضًا على عربته الذهبيّة التي عبر فيها ، تحت قوس النصر ، أسراه وسباياه .

وقد علمنا ، فيما بعد ، أن أذينة لم يدرك فاليريان حيًّا ، إذ كان الإمبراطور الأسير قد فارق الحياة ، كمدًا في السجن ، ولكن شابور لم يسعد ، كثيرًا ، بانتصاره ، فقد لاحقته جيوش

أذينة في جولات ثلاث ، إلى ما بعد طيسفون . في الجولة الأولى ، فكّت الحصار عن مدينة الرّها ، وفي الثانية ، استعادت نصيبين وحران ، وفي الثالثة ، وصلت إلى أسوار طيسفون ، وحاصرتها . فما كان من شابور ، إلاّ أن لاذ بالفرار ، متخفّيًا بزيّ النساء ، واختبأ في معبد نار في الجبال ، فدخل أذينة عاصمته ، واستولى على خزائنها ، واقتاد من كان فيها من كبراء الفرس ، ومحظيّات الشاه أسارى إلى تدمر .

كانت أيّام من الفرح والاحتفال ، لم تشهدها المدينة ، منذ سنوات طوال . ولم تتوقّف فرق الخيّالة عن التجوال في الشوارع ، وسط الأهازيج ، واستعراضات الحواة ، والراقصين الذين قدموا من مختلف أنحاء سوريا ، وفينيقيا ، والعربية . فانتصار أذينة كان في نظر كثيرين بداية النهاية لكابوس شابور الطويل .

وطوال هذه الاحتفالات ، لم تبقَ مدينة ، أو قبيلة ، إلا وأرسلت من يهنّىء أذينة ، ويبايعه ملكًا لملوك الشرق ، جميعًا .

ومن روما وصل زثوس العربيّ ، مع وفد كبير ، من مجلس الشيوخ ، حاملين تهاني الإمبراطور ، غالينوس ، ومنحه لأذينة لقب مصلح الشرق كلّه ، والاعتراف به ، حاكمًا ، على الولايات الشرقيّة ، جميعها . وفي كلّ هذه المبايعات والتهاني كانت زنوبيا تقف إلى يسار أذينة ، وعلى رأسها التاج ، وعلى يمينه يقف ابنه خيران الذي بات فتى يافعًا يرتدي لباس الحرب ، ويضع على رأسه ، هو الآخر ، تاج وليّ العهد .

وكما في المرّة السابقة ، زار زثوس قصيًا في المعبد ، حيث

كان معتكفًا في صومعته ، غير راغب في المشاركة بالاحتفال ؛ فالفرح ، كما قال لزثوس :

– *ليس بالرقص والغناء ، ولا بالمهرجان ، ولا بالمجون ، بل هو فرح القلوب ، في دنوّها من الإله!*

كان اللقاء مختلفًا ، هذه المرّة ، فزثوس أتى وحيدًا ، ولم يكن يريد شيئًا ، سوى الحديث إلى قصيّ ، والاستماع إلى رأيه ، في وحدانيّة الإله .

وبرغم أن قصيًا لم يكن يحبّ الحديث في شؤون الآلهة ، إلا أنه بدا راغبًا في الإجابة عن الأسئلة ، وقال ، وهو يحدّق في عينيّ زثوس ، وعلى محيّاه ابتسامة العارف :

– *الواحد الأزليّ هو أصل كلّ شيء . . . الآلهة التي هي الكواكب ، والجنّ الذين هم الأرواح ، والإنس الذين هم نحن ، كلّ أولئك مخلوقاته . ربّ العرش العظيم أوجد الكون على شكل كوز صنوبر ، ووضع مخلوقاته داخله ، بانتظام عجيب ، وتدبير منزّه عن الخطأ ، تمامًا ، كما هي حبّات الصنوبر ، منتظمة داخل الكوز ، لا تعتدي حبّة على حيّز حبّة أخرى .*

قال زثوس :

– *إذن ، هو كثير بمخلوقاته .*

قال قصيّ :

– *بل هو واحد في كثرته ، واحد في تعدّده ، واحد في أمره ، واحد في إرادته ، واحد على عرشه . هو واحد في اسمه الذي لا نسمّيه .*

بدا التأثّر شديدًا على وجه زثوس ، وهو يستمع إلى كلمات قصيّ الحاسمة ؛ فبادر متسائلًا :

– *أيها المبجّل ، ما حاجة الواحد الأزليّ للآلهة وللجنّ ، وللإنس ؛ إذن؟*

قال قصيّ :

– *هذا شأنه ، وهذه إرادته ، ومن نحن حتى نسأل عنهما؟!*

قال زثوس :

– *وكيف يكون واحدًا ، ومتعدّدًا ، في آن معًا؟*

قال قصيّ :

– *لا يدرك الواحدَ الأزليَّ ، إلا صفوةُ الصفوة من البشر ، ولذلك فاضت عنه الآلهة درجات ، أرفعهم درجة بعل السماوي ، وزوجته ، اللات ، فبعل هو مُجري السحاب ، منزل المطر ، مسيّر الأكوان ، بنظام عجيب ، واللات هي الأمّ الحارسة ، سيّدة الخصب في هذا العالم ، وباقي الآلهة كلٌّ اختص بعمله ، يرحبول للشمس ، وعجلبول للقمر ، وبل هو رسول والده إلى البشر ، ولكلّ إله من هؤلاء الآلهة تجلّيات متعدّدة ؛ بتعدُّد المهمّات التي كُلِّف بها . أمّا الجنّ فهي الأرواح الحارسة المكلَّفة بحمايتنا ، نحن البشر ، ولكلّ جنّيّ مهمّة كلَّفه بها بعل السماويّ .*

أغمض قصيٌّ عينيه ، ورفع رأسه إلى الأعلى ، وهو يقول :

– *حين يُوجِد الواحد جميعَ الكائنات ، من نوره ، أو من ناره ، أو من ترابه ، فهي جزء منه ، ولذلك هو متعدّد ، ولكنه*

واحد ، من خلال معرفته بها ، جميعًا ، وإحاطته بكلّ صغيرة وكبيرة ، فالكائنات ، جميعًا ، ستعود إليه ، فهو واحد .

قال زثوس :

- ونحن كيف نصل؟

قال قصيّ ، وهو يحدّق في زثوس :

- إذا سلكنا طريق الفضيلة ؛ فسنصل إلى الروح ، وإذا سلكنا طريق التأمّل والحكمة ؛ فسنصل إلى الواحد ، وتلك هي حياة الأرباب والربانيّين ، وأهل السعادة .

بدا أن زثوس أراد أن يسأل سؤالًا أخيرًا ؛ فأجابه قصيّ ، قبل أن ينطق بحرف واحد :

- الخلاص فرديّ ، وفرار الواحد منّا إلى الواحد ، وحده .

حينها نهض زثوس ، وهمّ بالمغادرة ، فعانق قصيًا ، وقال له ، وهو يشدّ على يده :

- أيها المبجَّل ، ثمّة رجل تركته في روما ، يدعى أفلوطين ، لا بدّ أن تراه ، ويراك ، ولو بعد حين!

وبعد أن غادر زثوس ، قال لي قصيّ :

- هذا الرجل يموت ، قتلاً ، ليس لذنب اقترفه ، أو لخطأ فيه ، بل بسبب وفائه!

سنوات الضغائن

بعد كلّ نصر ، في معركة جديدة ، كان أذينة يزور قصيًا في المعبد . يختليان في غرفة الأفكل ، ساعة أو ساعتين ، يمضي أذينة ، بعدها ، إلى معسكره ، أو قصره ، ويتوجّه قصيّ إلى حرم الإله ، بل ؛ منتظرًا إشارة إلهيّة ، أو هاتفًا ينبئه عن قابل الأيّام .

لم تكن الانتصارات والأمجاد التي كان يحصدها أذينة ، وجيوشه ، مبعث سعادة لقصيّ ، بقدر ما كانت مصدر قلق وحزن دفين ، لم يعرف أحد سببه!

كان أذينة قد بلغ ذروة المجد ، في الشرق كلّه ، واعترف به غالينوس شريكًا إمبراطوريًا ، تقاسم معه الألقاب الشريفة ، جميعها ، ولم لا؟ فأذينة وجيوشه المظفَّرة أبعدت شبح شابور إلى ما وراء دجلة ، ونعمت مدن الولاية الفراتيّة ، وولاية سوريا ، بسلام طالما تاقت إليه . أمّا المتمرّدون في حمص ، فقد قتل كويتوس على يد الأهالي ، وألقي القبض على باليستا ، وأرسل مخفورًا ، إلى روما ؛ ليلقى جزاءه هناك .

لقد بات أسد الشرق المروِّع ، وهو اللقب الجديد لابن

خيران ، بمثابة المنقذ الذي أرسلته الأقدار للإمبراطوريّة المتهالكة ، والأمل الوحيد لها ، في مواجهة البرابرة الساعين لالتهامها ، من كلّ حدب وصوب ، بعد إبعاد خطر الفرس ، ووضع حدّ للمتمرّدين .

ولكن الضغائن تعمل في مواطن الفرح والابتهاج ، كما كان قصيّ يقول ، فالفرح ستار خادع يخفي خلفه مرض القلوب ، والفرحون ؛ بما كسبوا ، هم أقرب الناس إلى الضغينة ، وأبعد الناس عن اليقين ، وما بعد الفرح إلاّ الكدر والمصائب . . وهو ما كان حقّا!

غدت انتصارات أذينة وأمجاده ، أشبه بداء عضال ، بدأ يغزو جسد تدمر ، شيئًا فشيئًا ، ومع كلّ صباح جديد ، كانت الدسائس تحاك ، هنا أو هناك ، والشائعات تسري ، كما النار في الهشيم ، وشقّة الخلاف تكبر بين التدمريّين ؛ بل ، وصل هذا الداء إلى أفراد الأسرة الحاكمة ذاتها!

كان قصيّ قد نصح أذينة بإبعاد ابن عمّه ، معن ، عن المدينة ، أو تجريده من قوّته ؛ نظرًا لدوره المفضوح في حياكة الدسائس ؛ فهو الذي مكر للأمير الصالح التقيّ ، ورود ، شقيق أذينة ، وجعله يستقيل من رئاسة مجلس شيوخ تدمر . وهو الذي ألّب التدمريّين ضدّ قرار تعيين خيران بن أذينة وليًا للعهد ، زاعمًا أنه مخنَّث لا يصلح للقيادة ، وأنه يعرفه أكثر من غيره ؛ كونه ابن شقيقته المتوفّاة . وكانت ثمّة شائعات وصلت

إلى أذينة وقصيّ ، زعمت بأن زنوبيا تقف ، في الخفاء ، إلى جانب معن في موضوع ولاية العهد ، وإنكار أهليّة خيران ، على الرغم من أنه نشأ في حجرها ، ولم يكن يعرف أمًا له غيرها! ولكنها شائعات لم يأخذها أحد في تدمر على محمل الجدّ .

أصمّ ابن خيران أذنيه عن تحذيرات قصيّ المتكرّرة ، وبراهينه الدامغة ، على خيانة معن ، معتمدًا في تجاهله لها على حبّ التدمريّين ، وولاء جنوده المطلق! حتى أتاه الخبر الصاعق بتمرّد معن ، واتخاذه الرستن مقرًا ، خالعًا على نفسه الألقاب الشريفة كلّها ، والتي كان أذينة نفسه يحملها .

أمّا زنوبيا ، فلم تعد تخفي انتقادها لشريكها ؛ بسبب حمايته لروما ، كما كانت تردّد على مسامعه ، بل استدعت من أثينا معلّمها ومعلّمي القديم ، لونجينوس ، المشهور بانتقاداته العنيفة لعقليّة الرومان ، وطرائقهم ، وحشدت إلى جانبها عددًا من شيوخ تدمر ، ممّن كانوا يرون في ترك روما لمصيرها المحتوم بأيدي البرابرة أملًا لإمبراطوريّة الشرق الوليدة!

كان قصيّ يرقب ذلك كلّه بحزن نبيل ، وتأمُّل طويل ، وصلوات وابتهالات للآلهة ؛ كي تحفظ تدمر ، وملكها ، من كلّ سوء ، برغم يقينه الداخليّ بانتفاء جدوى ما يفعله ، ولذلك حين أتاه خبر اغتيال أذينة ، وابنه خيران ، على يد معن الشرّير ، في الطريق بين حمص واللاذقيّة ، بدا وكأنه كان يعلم

بالأمر ، لم ينتظر ، طويلًا ، أمام المحراب ، ألقى من يده البخور في المجمر المترمّد ، ثم غادر المكان إلى معتكفه ، في الجبل .

كانت خطّة أذينة التي أخبر قصيًا بها ، قبيل ذهابه ، إلى احتفال اللاذقيّة ، أن يحجر على مناوئيه ، فور عودته إلى تدمر ، وأن يتخلّص من معن ، وهو في طريقه لحرب البرابرة القوط ، في تراقيا ، تلك الحرب التي كانت نتيجتها محسومة ، سلفًا ، لصالحه ، كما قال .

كان فخًا محكمًا ؛ إذن ، نصبه معن ، وبعض أفراد حاشية أذينة ، وكان قصيّ قد علم بهذا الكمين ، حين نظر في عينيّ أحد المتآمرين ، ولكن الأوان كان قد فات ، وأذينة مضى إلى حتفه طائعًا ، والأمر كان من جهة قصيّ ، انتظار الخبر المفجع ؛ ليس إلاّ!

ولم يمضِ وقت ، حتى وصل جثمان ملك الملوك ، ووليّ عهده ، مغمورًا بالثلج ، وكان النحّاتون قد أعدّوا ناووسًا لم يرَ أحد مثله ، في تدمر ، من قبل ، عليه رسومات لأذينة ، وهو يقدّم الذبيحة الإلهيّة ، وإلى جانبيه أبناؤه الذكور ، الأحياء منهم والأموات ، وعلى غطاء الناووس مثّلهُ النحّاتون ، وهو مُخلّد في جنّة النعيم ، مرتديًا حلّة من حرير الإستبرق ، متكئًا على أريكة من سندس ، متزنّراً بسيفه ، واضعاً الحليّ حول عنقه ، والأساور في معصميه ، وإلى جواره زوجتاه ، أمة اللات جالسة ، وزنوبيا واقفة بكامل زينتها ، يوم زفافها ، وإلى جوارها

حصانه القتيل الذي لم يفارقه في أيٍّ من حروبه .

وفور انتهاء مراسم الدفن التي أشرفتُ عليها بنفسي ، أنا حنبل ، بعد امتناع قصيّ ، دخل معن إلى المدينة ، مع كوكبة من جنده ، من بوّابة حمص ، وأعلن نفسه إمبراطورًا على المشرق ، واقتحم القصر الملكيّ ، وجلس على عرش أذينة ، ثم أمر بسكّ العملة ، وعليها صورته .

ولكن الأمر لم يطل كثيرًا به ، حتى وصلت هذه الأخبار إلى قادة القوّات المنتشرين على الجبهات ، وإلى زعماء قبائل الجنوب في البريّة ؛ فأحاطوا بتدمر من الجهات الأربع ، ودخلوا إلى القصر ، وأخرجوا معن وحاشيته ، مقيَّدين ، وصلبوهم خارج المدينة ، وتركوهم طعامًا للنسور كاللصوص والسُّراق ، ثم حملوا الفتى ، وهب اللات بن أذينة ، على ظهر جمل ، وعلى رأسه تاج الملك ، منادين به ملكًا للملوك ، مكان والده ، وإلى جواره في هودج جمل آخر ، كانت والدته الملكة ، زنوبيا ، تضع التاج على رأسها ، وسط هتافات الجند ، وأهازيج التدمريّين الفرحين بعودة الحقّ إلى أصحابه .

أمّا أنا ، فقد رسَّموني أفكلًا للإله ، بل ، بعد عشر سنوات ، أمضيتها بمرتبة أفرهاط ، أيْ مدبّر شؤون المعبد ، ثم ثماني أخرى ، بمرتبة كمرا ، أيْ نائبًا للأفكل ، وقام برسامتي المبجّل قصيّ الورع ، الذي احتفظ بمرتبته الدينيّة أفكلًا أكبر لجميع الآلهة التدمريّة ، تحت إلحاح الملكة ، زنوبيا ، وشيوخ تدمر ، بعد

أن كـان قـد أعلن اعـتـزاله ؛ حـزنًا على أذينة ، المأسـوف على شبابه ، وعلى تعبه الذي لم يوصله إلى الغاية!

وفي كلمته المقتضبة ، في حفل الرسامة ، شدّ من أزري ، وطلب من رجـال الدين تسـهـيل مـهـمّـتي ، وحـذّر من قـابل الأيّام ، داعـيًا إلى التـعـاضـد ، والإخـلاص في العـمل ، ونبـذ الضغائن والأحقاد ، والوقوف مع الملك الجديد ، ووالدته الملكة التقيّة .

ومنذ ذلك اليـوم ، بات قصيّ يمضي معظم وقته معـتكفًا ، في غـار الجبل ، في حـالة من التـأمّل ، مـا خلا بعض الأوقـات التي كـان يقـدّس فيـها نذور علية القوم ، أو حين كـانت زنوبيـا تطلب استـشـارته في أمر من الأمـور . وشـيـئًـا فـشـيـئًـا ، كـانت عـلاقته بعالمنا الزائل تضعف ، وتتلاشى ، لتتوثّق ، بدلًا منها ، علاقة أخرى مع عالم الأرواح ، والأرباب ، والخدور العلى!

لونجينوس

حين وصل المعلم ، لونجينوس ، إلى تدمر ؛ بناء على دعوة تلميذته السابقة ، زنوبيا ، كانت المدينة تمور في بحر متلاطم ، من الضغائن والأحقاد ، وكان من المنتَظر أن ينضمّ إلى حاشية أذينة لدعم آراء الداعين إلى الانفصال عن روما .

تنقَّل لونجينوس ، كثيرًا ، خلال سنوات حياته التي زادت على الستين عامًا ، فمن حمص التي ولد فيها ، إلى الإسكندريّة التي تلقَّى فيها علومه ، على يد معلمه ، ومعلم أفلوطين ، أمونيوس ، ثم إلى صور ، عاصمة الولاية ، ثم إلى أثينا التي كرَّسَتْه أهمَّ نقّاد زماننا ، ثم إلى تدمر التي ألقى فيها عصيَّ الترحال .

كان يرفض الحديث عن أصله ، برغم علمنا ، جميعًا ، بأنه ولد لأب تدمريّ ، وأمّ حمصيّة ، وكان يقول : إن التفاخر بالانتماء إلى مكان ، أو قبيلة ، ما هو إلا عصبيّة مرذولة لا تليق بالإنسان الساعي إلى الكمال .

في بعض الأحيان ، وحين كانت الأحاديث تطول بيننا ، كانت اللغة التدمريّة تتسلّل إلينا ؛ فننسى نفسينا ، لبعض

الوقت ، ولكن سرعان ما ينتبه لذلك ؛ بسبب افتقار لغتنا للعبارات الفلسفيّة ، والأدبيّة ؛ فيعود للحديث باليونانيّة التي كان يعدُّها أسمى اللغات ، قاطبة .

خلال دراسته الفلسفة ، على يد أمونيوس ، في الإسكندريّة ، بقي لونجينوس مخلصًا للمعلم الأوَّل ، ولم يحاول أن يضيف إليه شيئًا ، كما فعل أمونيوس . ولذلك لم يكن أفلوطين يعدّه من جماعة الفلاسفة ، بل من جماعة الأدب ، كما أخبرني بذلك مالكوس .

وحتى عندما ذهب إلى أثينا ؛ للتدريس في أكاديميّة أفلاطون ، غلب على اهتماماته المنحى الأدبيّ ، ولكن عمّه الذي كان يترأّس الأكاديميّة ، أعلن ، وهو على فراش الموت ، أن ابن أخيه هو خليفته ؛ فتورّط بالفلسفة تورّطًا! ولذلك كان حريصًا على تدريس أفلاطون ، كما هو ، دون أيّ إضافات ، أو اجتهادات ، على عكس ما فعله أفلوطين الذي اتّخذ من تعليم أفلاطون قاعدةً انطلق منها ؛ لبناء نظريّته الفلسفيّة المتكاملة .

ومع ذلك ، كان لونجينوس أعلم رجال عصره ، بشهادة الكثيرين ، ومنهم أفلوطين ، وكان يوصف بأنه مكتبة حيّة ، أو أرشيف يسير على قدمين . وتعدّ كتبه في النقد الأدبي مراجع ، لا تدانيها مراجع ، في زمننا ، بحسب قول مالكوس ، فهو الذي ربط بين عالم أفلاطون المثاليّ ، والأدب الرفيع .

وكنت ، أنا حنبل ، قد تلقّيت تعاليم أفلاطون على يديه ،

في أثينا ، كما أسلفت ، وكان إيمانه مطلقًا بجميع المبادىء والأنظمة التي وضعها أفلاطون لجمهوريّة كاليبوليس المثاليّة ، وكان مؤمنًا بأن تلك الجمهوريّة ستقوم ، إن عاجلًا ، أم آجلًا ؛ لأنها النظام الوحيد المتوافق مع الفطرة الإنسانيّة .

فالحكم مرتبط- بحسب رأيه- بالعدل ، والحاكم الصالح هو الحاكم العادل ، ولكن السؤال الذي كان يطرحه في محاضراته ، ولا يجيب عنه ، هو هل الإنسان عادل في طبعه ، أم متعدٍّ؟ ولذلك كان يرى أن وظيفة الدولة ينبغي أن تعلِّم الأفراد حبَّ العدالة ، والدولة العادلة هي التي يقوم كلّ فرد فيها بالعمل الخاصّ ، بطبيعته ، فالحاكم يحكم ، والجنديّ يحرس ، والعامل يشتغل ، تمامًا ، كما هي فكرة العدالة في النفس البشريّة ، فالعقل يضبط الشهوات ، والعواطف تساعد العقل في عمله ، وبحسب ما علَّمنا في الأكاديميّة ، فإن العدالة الاجتماعيّة هي جزء من العدالة الداخليّة ، عدالة النفس .

كان لونجينوس يرى في روما إمبراطوريّة التعدّي والشرّ ؛ فهي تقسّم الناس ، بين أغنياء وفقراء ، والأغنياء يسعون إلى المراتب السامية ، عن طريق المال ، عندها تهبط السياسة ، وتنحطّ الطبقة الحاكمة التي يسعى كلّ طامح فيها إلى قتل منافسيه ؛ للوصول إلى السلطة ؛ فتتكرّس الديكتاتوريّة ، وفي الديكتاتوريّة يعمّ الظلم ، وتنحطّ القيم الإنسانيّة كلّها ، ولذلك ، فإن الحلّ هو في حاكم عادل صالح ، وهذا الحاكم ،

لكي يحقّق العدل والخير والصلاح ، لا بدّ أن يكون فيلسوفًا ، يحيط به الفلاسفة .

ويبدو أن حماسته لمغادرة أثينا ، والالتحاق بتلميذته ، في تدمر ، نابع من ذلك الأمل الذي طالما راوده باقتران الحكم بالفلسفة ؛ فزنوبيا ، كما كان يؤمن ، من الفلاسفة المجدّين الممتلكين لناصية المعرفة والجدل والمحاكمة . صحيح أنها لم تكن هي الحاكمة ، حين وصل إلى تدمر ، ولكنها كانت زوجة الحاكم ، وشريكته ، وصاحبة الرأي الراجح عنده . أما وقد مات أذينة ، الآن ، واستقرّ الحكم بيدها فقد بات أمر جمهوريّة أفلاطون وشيكًا ، كما قال لي ، أنا حنبل ، حين كنّا نحتفل بجلوس وهب اللات على العرش ، وأمّه الملكة وصيّة عليه .

في هذه الآونة ، كانت زنوبيا قد أمرت بإقامة حرم لجميع الآلهة التدمريّة ، في القصر ، وكلّفتني ، أنا حنبل ، بإقامة طقس الذبيحة ، كلّ يوم ، بعد صلاة الصباح . والحقّ ، أنني لم أعهد امرأة في تدمر ، كلّها ، بتقاها ، وحرصها على تأدية الطقوس للآلهة ، ولا رأيت امرأة أشدّ ورعًا وتقشّفًا منها ، فلم تكن ترتدي الفخم من الثياب ، إلا في المناسبات العامّة ، ولم تبذخ على نفسها ، ولا على أبنائها الذين كانوا يعيشون ، كما يعيش باقي التدمريّين ، وكثيرًا ما جمعتنا النقاشات التي تتلو الصلوات ، وكانت - كما رأيتها ، وكما قيل عنها- أكثر نساء المشرق عقلًا وحكمة .

ومع انتظام حضوري إلى القصر ، صباح كلّ يوم ، توثّقت علاقتي بالمعلم ، لونجينوس الذي كان يستعين بي في بعض الأحيان ؛ لكتابة الرسائل إلى الفلاسفة الأفلاطونيّين ، أينما كانوا ، موجِّهًا الدعوات لهم ؛ للقدوم إلى تدمر ، والإقامة فيها ؛ لتحقيق حلم المعلم الأوّل . وقد لاحظت أن المراسلات بينه ، وبين مالكوس البتانيّ لم تنقطع ، إذ كان مالكوس يرسل إليه كثيرًا من مقالات المعلم ، أفلوطين ؛ لكي ينسخها ، ويعيدها إلى مالكوس ، مرّة أخرى .

وفي إحدى الجلسات الكثيرة التي جمعتنا ، سألته :

– *أيها المعلم ، لم يكن هذا رأيك في أفلوطين ، فماذا حصل إذن؟*

قال ، وهو ينظر إلى ورقة بين يديه :

– *ربما تجيب هذه الرسالة التي كتبتها للتوّ ، وسأرسلها إلى مالكوس عن تساؤلك ، فقد عرفت أفلوطين ، حين كنّا في الإسكندريّة ، يومها كنت أحسبه من غير العارفين بمذهب المعلم ، ولكن ، بعد أن قرأت ما كتبه في السنوات الأخيرة ، نصحت صاحبنا ، مالكوس ، بالتوجّه إليه في روما ، وكان يزوّدني بمحاضراته ، ومقالاته ، كلّما سنحت الفرصة له .*

أطرق ، قليلًا ، وكأنه يفكر بأمر ، ثم أردف :

– *سأقرأ لك ما كتبته لمالكوس ، بعد أن وصلتني رسالة منه : ابعث إليّ يا مالكوس ، بتلك الكتب ، عندما يحلو الأمر*

لك ، أو بالأحرى ، احملها أنت بنفسك ؛ فإنني لا أزال ملحّاً على أنه من الواجب أن تفضل على كلّ طريق ، تلك التي تؤدي بك إلينا ، لا لأنك تفيد علمًا تتوقّع وجوده عندنا ، بل لأجل هوائنا المعتدل الصالح لصحّتك التي تشكو انحرافها ، وإذا كنت لتظنّ بأنك ستجد ، عندها ، غير ذلك ، فلا تنتظر ، من قبلي ، شيئًا جديدًا ، ولا حتى تلك المأثورات القديمة التي أضعتها ، فيما تقول . إن النُّساخ ، عندنا ، في غاية النُّدرة ؛ فإني وأيم الحقّ ، قد أمّنت ، بشقّ النفس ، في هذه الفترة ، تجهيز ما بقي من آثار أفلوطين ، علمًا بأنني صرفت ناسخي عن أعماله ؛ ليتجرّد إلى ذلك العمل ، وحده . إن تلك الآثار ، هي الآن ، كلّها بين يديّ ، فيما أظنّ ، مع تلك التي أرسلتها لي ، لكنها ما أنقصها بين يديّ! إذ ما أكثر ما فيها من أخطاء! على أنني كنت أظن أن صاحبنا ، أميليوس ، كان قد أعاد النظر في هفوات النُّساخ ، إلا أنه كان منهكًا في مهمّات أخرى أهمّ من هذا العمل المُجهِد . فليت شعري ، كيف السبيل إلى معالجة تلك المقالات؟! مع أني شديد الرغبة في أن أطّلع ، عن كثب ، على المقالات «في النفس» و«في الأيس» ، وهي المقالات التي كثرت فيها الأغلاط ، بوجه خاصّ ، فحبّذا لو تصلني منك نسخ صحيحة ، أقابل بها ما لديّ ، ليس أكثر ، ثم أردّها . ولكنني أعود ، فأقول : لا ترسلها ، بل بالأحرى تعال أنت بها ، وبغيرها ، إن فات أميليوس شيئًا منها ، فإنني معنيّ بكلّ ما

حمله إليّ ، محتفظ به ، و كيف لا أجمع مأثورات رجل هو أهل لكلّ احترام وإكرام؟! لا شكّ ، في أنني لا أزال عند موقفي القديم ، وهو أنني حقًا ، لا أسلّم بكثير من افتراضاته ، إلا أنني شديد الإعجاب ، والكَلَف بأسلوب الرجل في كتابته ، وبكثافة تفكيره ، وبالوجه الذي يعمد إليه في طرح مطالبه ، فأرى من الواجب على الباحثين أن يضعوا مؤلّفاته في مقام مؤلّفات العلماء المشهورين .

قلت له :

- لم أطرقت ، قبل أن تقرأ الرسالة؟

قال :

- كثيرًا ما نخطىء بحقّ أناس ، قبل أن نعرفهم حقًا ، والعبرة في رأيي هي : القدرة على الاعتراف بالخطأ ، والرجوع عنه .

شعرت ، حينها ، أن المعلم ، لونجينوس ، كان يشعر بتبكيت الضمير على موقفه السابق ، وبدا لي ، وكأنه يريد أن يكفّر عن خطئه ، بأيّ طريقة كانت ؛ حتى ولو اعترف بأستاذيّة المعلم ، أفلوطين ، ولعمري هذا مسلك الحكماء المترفّعين عن الصغائر والضغائن!

وكانت هذه الرسالة مناسبة ، لأن أسأل المعلم ، لونجينوس ، عن صديقي القديم ، مالكوس البتانيّ ، فقال لي : إنه أصيب بمرض السويداء ، وحاول الانتحار ؛ فنصحه المعلم ، أفلوطين ،

بالذهاب إلى صقلية ، والابتعاد عن ضغوط روما ، ومشاكلها ، وأخبرني أنه على تواصل دائم معه ، وأنه سيسعى ، ما يستطيع ؛ لاستقدامه إلى تدمر .

ولكنه ، لم يأتِ ، برغم كلّ محاولات المعلم معه .

وقد أخبرني مالكوس بعد سنوات ، في إحدى جلسات التذكّر في روما ، بأن السبب الحقيقيّ الذي منعه من القدوم إلى تدمر ، وجود أميليوس ، وحدّثني عن الخلاف الذي نشب مع زميله ؛ بسبب تكليف المعلم ، أفلوطين ، له بجمع محاضراته ، وترتيبها ، وتصحيحها ، وهو أمر كان أميليوس يعتقد بأنه من حقّه ؛ بسبب ملازمته للمعلم ثمانية عشر عامًا ، قبل حضور مالكوس .

وكان لافتًا لي أن مالكوس كان يستخفّ بأميليوس ، كثيرًا ، ويعدّه جاهلًا بفنّ الحوار ، غير كفء لإبداء حكم فلسفيّ ما ، والسبب في ذلك ، كما أخبرني ، أن أميليوس انتقص ، أمامه ، في إحدى المناسبات ، المعلمَ ، أفلوطين ، ورأى بأن مطارحاته كانت حافلة بالخلل ، ويكثر فيها الحشو!

وقال ، بشيء من الغضب :

- *كيف لشخص يحمل هذا الرأي بمطارحات المعلم أن يكون أمينًا على هذا التراث؟! وكيف يمكن أن نثق بأنه سيقدّم فلسفة أفلوطين للناس ، بصورة مثلى؟!*

ولكن أميليوس ، وبسبب طول إقامته مع المعلم ، نجح في

التحريض على مالكوس ، ضمن الحلقة الضيّقة ؛ ما أدّى إلى إصابته بحالة من الكآبة الشديدة ؛ دفعته للتفكير بالانتحار ، فما كان من المعلم ، إلا أن أرسله إلى ليلوبيوس ، في جزيرة صقلية ، إلى أحد مريديه ، ويدعى بروبوس ؛ ليتفرغ ، هناك ، لمراجعة ونسخ المحاضرات التي كان يرسلها له المعلم ، بشكل سريّ ، من دون معرفة أحد من أعضاء الحلقة الضيّقة!

وبالعودة إلى تدمر ، والجلسات مع المعلم ، لونجينوس ، أذكر جلسة جمعتنا ، بحضور الأفكل الأكبر ، قصيّ ، وكانت زنوبيا قد أصرّت على حضوره ، وإشرافه شخصيًا على احتفال ختان ابنها الأصغر ، تيم الله ؛ فحضر ملبيًا ؛ نظراً لمحبّته الخاصّة لأذينة ، ولأبناء أذينة ، وقد أقام طقس الختان ، وبارك الطفل المختون ، ولكنه امتنع عن مباركة الذبيحة الدمويّة ، فقمت أنا بمباركتها ، حين نظر إليّ مستنجدًا!

وبعد أن انتهى الاحتفال ، مكثنا ، في إحدى قاعات القصر ، جميعنا ، زنوبيا وقصيّ ولونجينوس وأنا ، وبدأنا نتداول في أحوال المملكة ، وإعلان الولايات المصريّة ولاءها ، وانضمامها لمملكة الشرق ، بعد محاولات فاشلة من بروبوس ، الواليّ الرومانيّ ؛ لتعطيل هذا الأمر .

كان قصيّ مستمعًا أكثر منه متكلّمًا ، وكان يرقب بعينيه كلّ نأمة ، أو نظرة ، تصدر عن الحاضرين . . . وبحماسة ظاهرة أعلنت زنوبيا افتتاح طريق تجاريّ ، يصل تدمر بمصر ، من

شمالها إلى جنوبها ، وأن أيّام تدمر الزاهرة ستعود من جديد .

وزاد لونجينونوس على حماسة زنوبيا بالقول ، وهو يقرأ من ورقة برديّ : إن رسالة وصلته من تلميذه المصريّ ، تيماجينيس ، أيْ تيم الجنّ ، في لغتنا ، تؤكّد الرسائل السابقة التي تحدّثت عن النصر السهل الذي حقّقه القائد ، زبداي ، على الرومان في بابيلون ، وأن تيماجينيس قال في رسالته : إن هذا النصر لم يكن ليتمّ ، لولا دعم المصريّين والأنباط لتدمر ، وكراهيتهم للرومان ، وزاد بأن ذلك لا بدّ أن يكون حافزًا لنا ؛ للبدء بمشروعنا الحضاريّ المشرقيّ ، والشروع في إرساء قواعد الحكم الرشيد العادل ، وفق قوانين كاليبوليس .

وهنا تدخّل قصيّ ، موجّهًا الأسئلة إلى لونجينوس :

– *ولكن كيف ترى ، أيها المعلم ، علاقة القوّة بالعدل؟ هل ينبغي أن نطلب العدل ، أم نطلب القوّة؟ وأيهما خير من الآخر ، أن نكون صالحين عادلين ، أم أقوياء؟*

صمت لونجينوس ، قليلًا ، قبل أن يجيب ؛ فالأسئلة فاجأته ، ولكنه استدرك ارتباكه بسؤال مباغت :

– *أيها المبجّل ، لا خلاف على أن القوّة ، بحدّ ذاتها ، شرّ مطلق . . . أنت ماذا تقول في الأمر؟*

ردّ قصيّ ، من فوره :

– *العدل يحتاج إلى قوّة ؛ لفرضه ، ولكن الحاكم ، حين يستشعر قوّته ، لا يعبأ بالعدل ؛ فماذا نفعل؟*

تبسّم لونجينوس ، وقد شعر بأنه استعاد زمام المبادرة ؛ فقال :

- من أجل هذا ، لا بدّ أن يكون القائد فيلسوفًا ؛ لكي يكبح جماح القوّة ، ويجعلها مصدر خير ، ووسيلة لإحقاق الحقّ ، ولذلك لا بدّ من اختيار القادة ، منذ الصغر ، من ذوي النّباهة والذكاء ، وتربيتهم على العلم والفضيلة ، وأن يجري اختبارهم ، غير مرّة ، قبل بلوغ سن الخامسة والثلاثين ، فيخرجوا لمخالطة الناس في المجتمع ، وبذلك يصبح كتاب الحياة مفتوحًا ، أمامهم ، ثم يعيَّن هؤلاء القادة حكامًا للدولة ، من دون انتخابات ، ويصرفون نظرهم عن أيّ شيء ، سوى شؤون الحكم ، وتجنُّبًا لوقوعهم في تيّار حبّ المال والسلطة ، فإن الدولة توفّر لهم المسكن والملبس والحماية .

عندها تدخّلت زنوبيا في الحديث ، وقالت مخاطبةً قصيًا :

- سوف ننشىء في كلّ مدينة أكاديميّة للفلسفة ، إن لم يكن فيها أكاديميّة ، أصلًا ، وسيتعلّم الصغار تعاليم أفلاطون ، وأفلوطين ، وصحبهما ، وسنسعى لأن نصل إلى مدن تعيش الفضيلة وتتنفّسها ، فالعدالة ليست حقًا للأقوياء ، دون غيرهم ، إنما هي تعاون كلّ فئات المجتمع تعاونًا متوازنًا ؛ يجلب الخير للجميع .

سأل قصيّ :

- وإن رفض أحد قوانين كاليبوليس؟

ردّ لونجينوس ، بحزم :

- *يطرد خارجًا . . فشعب المدينة الفاضلة ينبغي أن يكون مؤمنًا بتعليم أفلاطون .*

وحين خرجنا عائدين إلى المعبد ، قال لي قصيّ ، وكأنه يحدّث نفسه :

- *لونجينوس رجل صالح وصادق ، ولكن ، ويا أسفاه! سيدفع حياته ثمن صلاحه وصدقه!*

مادت بي الأرض ، وكدت أسقط ، لولا أن تماسكت في اللحظة الأخيرة ، وحين لم يبدر منّي أيّ تعليق ، توقّف قصيّ ، وحدّق في عينيّ مليًا ، ثم قال :

- *هل أجد لديك نسخة من كتاب كاليبوليس؟*

عودة القوافل

دبّت الحياة في أسواق تدمر ، وشوارعها ، مجدّدًا ، مع عودة القوافل محمّلة بالبضائع ، من الأسواق الجديدة ، بعد انضمام مصر لإمبراطوريّة المشرق الوليدة .

قبل اغتيال أذينة ، بنحو خمس سنوات ، أصبح الطريق العابر للبريّة ، والواصل إلى بصرى ، فبترا ، فتيماء ، فيثرب ؛ وصولًا إلى بلاد حِمْيَر ، في متناول التدمريّين ، مستبدلين به الطريق العابر للمَفازة الكبرى ، المحفوف بالمخاطر ، والموازي لخليج الكلدانيّين .

لم يحتجْ التدمريّون ، يومها ، لكثير من الوقت ؛ كي يستردّوا علاقاتهم بملوك حضرموت ، وتجّارها ؛ فهذه العلاقات كانت راسخة ، منذ مئات السنين ، قبل أن يعلن الفرس حربهم على مدن الخليج ، وحوض الفرات .

وكان ملك الحضارمة ، عزيلوط ، قد أمر بترك دار التدمريّين ، في شبوة ، على حالها ، منذ أن غادرتها آخر جالية تجاريّة تدمريّة ، كانت مقيمة هناك ، قبل أكثر من عشرين عامًا .

ولكن هذا الطريق البريّ الطويل لم يكن يرضي التدمريّين ، كامل الرضا ؛ نظرًا لمحدوديّة بضائعه ، وقلّتها ، ولكنه كان يسدّ الرمق ، ويمدّ تدمر بأسباب البقاء ، ريثما تنجلي الأمور ، وتعود إلى نصابها المعهود .

أمّا الطريق الجديد العابر لفينيقيا ، والواصل إلى مصر ، عن طريق فلسطين ، فقد بدا لتجّار تدمر أجدى ؛ بسبب وفرة الموادّ ، وقلّة المنافسة التجاريّة ؛ فأعادوا الحياة لميناء قفط ، في صعيد مصر ، بعد أن كان مهملًا ، منذ خراب بترا ، وأنشؤوا وكالات تجاريّة فيه ، تمامًا كما فعل أسلافهم ، قبل ذلك بمئتي عام ، ويزيد في ميناء كرك سباسينو ، عند مصبّ دجلة ، في الخليج .

كان هذا أقصى ما يريده التجّار التدمريّون ، بعد سنوات طوال ، من السباحة في تيّارات مجهولة ، ورحلات محفوفة بالمخاطر كلّفتهم كثيرًا من الرجال والأموال والبضائع . . . صحيح أن الطرق الجديدة أكثر مشقّة ، والتدمريين أقلّ خبرة بها ، ولكن الزمن كفيل بتذليل صعابها ، كما ذلّل صعاب غيرها .

ومع عودة الحياة إلى الأسواق ، انشغل التدمريّون بتجارتهم ، وكفُّوا عن التدخّل في السياسة ، ودسائسها ، ومؤامراتها . وبين الحين والآخر كانت وفود الولايات الشرقيّة ، بساستها وعسكريّيها ، تتقاطر على القصر الملكيّ ؛ لتعلن ولاءها لإمبراطور المشرق الجديد ، وهب اللات بن أذينة ،

ووالدته الملكة التقيّة ، زنوبيا ، أمّا شيوخ القبائل ؛ فوحدهم لم يأتوا ؛ لتجديد ولائهم ، فما الذي أخّرهم حتى الآن؟!

كان هذا هو السؤال الذي لم يستطع زبداي ، القائد العام لقوّات الإمبراطوريّة ، ولا زباي ، قائد قوّات مدينة تدمر ، الإجابة عنه ، فكما هو معلوم ، كان عماد جيش تدمر الذي خاض كلّ هذه الحروب ، في السنوات الماضية ، يقوم على هؤلاء المقاتلين الأشدّاء ، أبناء الصحراء ، والذين سبق لهم أن عبّروا عن ولاء مطلق لأذينة بن خيران ، لم ينكثوه لحظة واحدة . . . ولذلك طلبت زنوبيا من قصيّ أن يتحرّى الأمر معهم ؛ ليعرف سبب امتناعهم ؛ فوعدها خيرًا ، ومضى إلى البرّيّة ، وغاب نحو شهر من الزمن ، عاد بعدها ، حاملًا جوابًا لم تكن تنتظره تدمر .

قال قصيّ للمجتمعين ، على عجل ، في مجلس الشيوخ :

– *القبائل ، وبعد موت أذينة بن خيران ، سقطت بيعتها له ، بوصفه ملك ملوك العرب ، واجتمعت كلمتها على مبايعة ملكٌ تنوخ ، جذيمة بن مالك ، ملكًا جديدًا لملوك العرب ، والأمر بات الآن بيده ، فهو الوحيد المخوَّل من اللات المقدّسة ، والقادر على إعلان الولاء لتدمر ، أو لغيرها .*

وبعد أن شرح قصيّ للحاضرين معنى أن تبايع القبائل ملك العرب ، على السمع والطاعة ، ورفض جذيمة إعلان موقف واضح من تدمر ، وملكها الجديد ، وهب اللات ، أُسقط في يد

الحاضرين . غير أن القائد العام للقوّات ، زبداي ، قلّل من تأثير هذا الأمر ؛ معللًا ذلك بانضمام الألوية الرومانيّة ، من أبناء البلاد الأصليّين ، العاملة في المشرق إلى قيادته ، وقرأ لائحة طويلة باسماء هذه الألوية . . . ولكن هذه الطمأنة لم تقنع أحدًا من العارفين بأمور الجيش ؛ نظرًا لطبيعة تدريب الألوية المحليّة ، وهزال خبرتها القتاليّة في الحروب الكبيرة ، ومع ذلك حاولوا أن يقنعوا أنفسهم به ، برغم أن موضوع جحود القبائل ظلّ غصّة في قلوب التدمريّين ، جميعًا

حين اختليت بقصيّ ، في المعبد ، سألته ، أنا حنبل :

- أيها المبجّل ، ما السبب الذي حدا بالقبائل لأن تفسخ ولاءها لتدمر ، طالما أن وهب اللات هو نجل أذينة ، وخليفته على العرش؟

قال :

- أنت لا تعرف يا حنبل ، معنى أن يحمل رجل ما لقب ملك العرب . . إنه عندهم عهد مقدّس مع جدّهم ، إسماعيل ، ولذلك فإن طاعته مطلقة ، في الحياة والموت .

قلت :

- لماذا؟

قال :

- أنجب الأب الأعلى ابنا ذكرًا أسماه إسماعيل ، ومن نسل إسماعيل تكاثر العرب ، وانتشروا في طول البلاد

وعرضها ، كتكاثر سنابل القمح ، وحمل إسماعيل لقب ملك العرب ، فور ولادته ، وتوزّع هذا اللقب ، في فترات لاحقة ، على أكثر من ملك من نسله . . . انحصر ، بدءًا ، بأبناء ابنه البكر ، قيدار ، ثم انتقل إلى ملوك النبط ، ثم إلى ملوك الحضر الثلاثة ، سنطروق الأكبر ، وابنه ، عبدسميا ، وحفيده ، سنطروق الورع الذي فقد مملكته ، في أيّامنا هذه ، إلى أن وصل إلى أذينة بن خيران .

قلت :

– *إذن ما الذي يمنع جذيمة بن مالك من إعلان الولاء لتدمر؟*

زفر قصيّ زفرة طويلة ، ثم قال :

– *يحسبون أن زمن الحروب ، والغنائم ، والسبي قد ولّى مع أذينة ، وينتظرون أن يعود مع جذيمة!*

ولكنه ، وقبل أن يغادر إلى غار الجبل ، قال ، وكأنه يتنبّأ بخراب آتٍ :

– *هو زمن آخر غير الذي نعرفه ، يا حنبل!*

ولكن تدمر سرعان ما تناست أمر القبائل ، وملكها الجديد ، جذيمة ، وعادت للانشغال بقصص تجّارها ، عن المدن والموانىء والأسواق الجديدة التي بدؤوا يكتشفونها ، فكانت سهرات السَّمَر في الأغورا ، وتبادُل الطُّرَف ، والقصص المرعبة ، والمضحكة ، في حانات الشارع المعمَّد ، تصل الليل بالنهار ،

مذكّرة بالأيّام الخوالي التي تشهد عليها تماثيل التجّار المكرَّمين ، المنتشرة في كلّ زاوية من زوايا المكان .

أمّا زنوبيا ، فلم تشأ أن يشعر التدمريّون بأن شيئًا لم يتغيّر في المدينة ، منذ أن وصلت ، وابنها إلى الحكم . . . كانت تريد للتدمريّين أن يروا بأن ثمّة تغيُّرًا كبيرًا طرأ ، وبأن تدمر زنوبيا ليست هي تدمر هدريان ، أو حتى ، تدمر أذينة ، نفسه!

في أحد الأيّام نادى المنادي ، في شوارع المدينة ، يدعو الناس للتوجّه إلى المدرّج ؛ لمشاهدة محاكمة تاجر باع التدمريّين بضاعة فاسدة ؛ فحضرت الحشود ، حتى ملأت المدرّج عن آخره ، وكانت زنوبيا ، والمعلم ، لونجينوس ، وباقي أفراد الحاشية يجلسون في مقدّمة الصفوف . ودخل إلى المدرّج أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، المكلّف بالقضاء ، وأمامه عدد من الجلّادين حاملين الرَّزَم ، وصعد إلى المنصّة ، وبدأ بتلاوة لائحة الاتهام على التاجر الذي لاذ بالصمت ، بعد أن أقرّ بذنبه . فما كان من القاضي ، إلا أن أصدر حكمه القاطع المستند إلى القانون الرومانيّ ، برميه فريسةً لحيوان مفترس جائع محتجز في قفص .

عندها علت الدهشة الوجوه ، وفغر الناس أفواههم غير مصدّقين ، وهم يرون الجنود يدفعون التاجر إلى الحلبة ، وهو في حالة ذعر شديد ، وماهي إلاّ لحظات ، حتى ظهر عدد من الجلّادين ، وهم يحملون قفصًا فيه ديك ، أطلقوه باتجاه التاجر

الذي تجمّدت الدماء في عروقه ؛ من هول المفاجأة . وحين حاول الفرار استقرّ الديك بين كتفيه ، ناقرًا مؤخّرة رأسه ، والتاجر يركض كالمخبول ، لا يدري ما يفعل ، فعلَت الضحكات في المدرّج ، وعمّ الابتهاج ، وغادرت زنوبيا وحاشيتها المسرح ، وهي تبتسم ساخرة .

كان هذا درساً بليغًا أرادت الملكة إيصاله للتدمريّين ، وغير التدمريّين ، فقوانين روما لم تعد نافذة في تدمر ، بل ، باتت محلّ تهكّم وسخرية ، ولم تعد القوّة ، ولا الإكراه هما الدافع لاحترام القانون ، بل الإيمان بالقوانين والشرائع ، وما يصدر عن الملكة ، ليس بوصفها كبيرة جلّادي الدولة ، بل بوصفها حكيمة حكمائها!

الأسرار

قبل اقترابي من المعلم البار، لونجينوس، والملكة التقيّة، زنوبيا، كنت أسمع بالمعلم، أفلوطين، دون أن أعرف ماذا كان يُعلِّم، وحين عرفت عنه أكثر، وعلمت بأنه فيلسوف أفلاطونيّ، لم أفهم سبب إسباغ هالة التقديس عليه؛ إنه، بحسب أوهامي، واحد من الفلاسفة الأفلاطونيّين الكثُر، فما الذي يجعله مستحقًا لكلّ هذا التقدير الذي يفوق تقدير المعلم الأول؟ لا سيّما وأنني درست أفلاطون، على يد المعلم، لونجينوس، ولم ألمس أيّ تقديس خاصّ له من أيّ أحد في الأكاديميّة، أو خارجها. كما أنني التقيت، في حياتي، بكثير من الأفلاطونيّين، ولم يحظَ واحد منهم بمثل ما يحظى به أفلوطين! ولذلك أقبلت، بتمعّن وتدبّر كبيرين، ولغير مرّة، على قراءة مقالاته التي كان لونجينوس ينسخها، ويؤرشفها، في مكتبته.

لقد أدركت، أخيرًا، وبعد جهد جهيد، وتأمّل وتفكُّر عميقين، السبب الذي كان يحدو ببعض الناس إلى منحه هذه القداسة، ولم لا؟ فهو أهل لها؛ إذ أضاء بعلمه اللدنّيّ الطريق

لكثيرين ، في زمن خطير ، تكاثرت فيه العقائد الفاسدة ، كما يتكاثر الذباب على الطعام .

كانت معضلة ديانتنا ، نحن السلاميّين ، كراهة التدوين ، فالعلم اللدنّيّ محصور بالكهنة ، وحدهم ، وينتقل بينهم ، شفاهًا ، وبشكل سِرَّانيّ ، ولا يُسمح لعوامّ الناس أن يتلقّوه ، وحتى الطقوس تسمّى ، بلغتنا ، الأسرار ، لا أحد بقادر على فهمها ، وإدراك غاياتها ، سوى نخبة مختارة من كبار الكهنة ، وهذا ما أوقع أبناء أمّتنا فريسةً سهلة بيد المسيحيّين ، ليس لأن ديانتهم كانت أفضل من ديانتنا ، بل بسبب أن علمهم كان مباحًا ومتاحًا للجميع .

لقد كنت أحاول ، على الدوام ، إقناع المبجّل ، قصيّ ، بأن ينقل علمه اللدنّيّ السامي ، إلى أبناء أمّتنا ؛ حتى يتيقّنوا من دينهم ، ويثبتوا عليه ، في خضمّ هذا البحر المتلاطم ، من العقائد والأفكار التي تحيط بهم ، من جهاتهم الأربع ؛ فلم أنجح ، إلاّ بأنْ نقَل لي قصيّ ، من فمه إلى أذني ، كثيرًا من عقائدنا ، وثبّتني على هذا الدين ، بعد أن كنت متشكِّكًا فيه ، وبكثير من أسراره!

ومع ذلك ، لم تكن إشارات قصيّ المقتضبة لتشبع نهمي ، وتَوقي لبلوغ الغاية ، برغم إيماني العميق بأنني على الدين الحقّ ، إلى أن قرأت تعليم أفلوطين ؛ فنقلني إلى مراتب أعلى من المرتبة التي كنت أشعر بأنني أحتلُّها في هذا الوجود .

كـان قـصيّ يعطيني الإشـارات ، ويتـركني تائهـا في دياجيـرها ، أتلمّس طريقي ، وحيـدًا ؛ للوصـول إلى الحـقيـقـة ، ولكن أفلوطين أضاء لي الدَّيْجور ، وأخذني من يدي إلى منابع النور .

وفي إحدى المرّات ، قال لي قصيّ : إن الاحساس بجمال هذا العـالم لا يكون ، إلا حين تتـحكّم الروح بالجـسـد ، عندها يكون العـالم عـادلًا ونزيهًـا . وتهت يومـهـا ، باحـثًـا عن العـلاقـة بين الإحـسـاس بالجـمـال ، وبين العدل . أمّـا أفلوطين فـشـرح لي : أنّ الروح ، في سعيها إلى الخير الأسمى ، لا بدّ أن تعود ، قبل ذلك إلى نفسـها ، والطريق إلى ذلك لا يكون ، إلا من خلال الفـضيلة التي تعطي لهذا الوجود جماله ، ففعلُ الفضيلة يؤدّي إلى الواحد ، وهي ، أيْ الفضيلة ، طريق الروح للعودة إلى الخير الأسمى .

لم يخبرني قصيّ ، يومًا ، ماذا كان يقصد بإشاراته المتكرّرة للواحـد الأوّل . أمّـا أفلوطين فـأخـبـرني بأن الواحـد الأزليّ هو سـبب هذا الوجود ، والمصـدر لكلّ شيء ، ولذلك فـهـو الأوّل ، وكلّ ما كان بعد الأوّل فهو من الأوّل ، حتمًا ، غير أن صدوره عن الأوّل له شكلان ، فإمّـا أن يكون صـدَر عنه ، بلا واسطة ، وإمّا أنه صـدر بواسطة أشـيـاء أخرى ، تكون قائمة بينه ، و بين الأوّل ؛ فـيكون إذن للأشـيـاء نظام ، وشـرح مـختلف ، وذلك أن منها مـا هو ثانٍ ، بعد الأوّل ، ومنها ثالث ، والثاني يضاف إلى الأوّل ، أمّا الثالث ، فيضاف إلى الثاني .

وقد فصّل المعلم ، أفلوطين ، في شرح هذه الأطروحة التي تبدو معقّدة ، بعض الشيء ، ولكنها في حقيقة الأمر ، هي المنطلق لفهم تعليمه ، على الشكل الأمثل ، فهذا الأوّل الأزليّ ينبغي أن يكون قبل الأشياء ، كلّها ، وأن يكون غير الأشياء التي بعده ، وأن يكون مكتفيًا غنيًا بنفسه ، وأن لا يكون مختلطًا بالأشياء التي بعده ، وأن يكون حاضرًا للأشياء ، بنوع ما ، وأن يكون واحدًا ، وأن لا يكون شيئًا ما ، ثم يكون بعد ذلك واحدًا ، فإن الشيء إذا كان واحدًا على هذا النوع ، كان الواحد فيه كذبًا ، وليس واحدًا ، حقًا ، وأن لا يكون له صفة ، وأن يكون فوق كلّ جوهر حسيّ وعقليّ . وذلك أن الواحد ، إن لم يكن الأوّل المبسوط ، حقًا ، الخارج عن كلّ صفة ، وعن كلّ تركيب لم يكن أولًا ، البتّة!

لم يقل لي قصيّ ، كيف أُدرك هذا الواحد الأزليّ ، أمّا أفلوطين فعلّمني أن إدراكه ، من خلال الفهم والمنطق انتقاص له ؛ لأنه أعلى من أيّ فهم ، وأرفع من أيّ منطق ، وحتى اختزاله بمفهوم الخير ، وحده ، كما يظنّ العوامّ ، لا يكفي كذلك ، فهذا انتقاص منه ، أيضًا ؛ لأن الخير صفة ، والصفة تدلّ على موصوف ، والواحد الأزليّ منزّه عن الصفات ؛ لأنه أعلى من الوجود ؛ فهو أعلى من الخير .

اكتفى قصيّ بالقول لي : إن الإله هو الكلّ في الكلّ ، من دون أن يزيد على ذلك القول حرفًا واحدًا . أمّا أفلوطين فعلّمني

أن جميع ما في هذا الكون هو من الواحد ، وكلّ ما في هذا الوجود إلهيّ ، في أصله ، يتوق للأعلى ، ويسعى للسجود له .

وفي إحدى جلسات التأمّل ، قال لي قصيّ : إن الإله الواحد هو اللا شيء ، وكلّ شيء ، فشرح لي أفلوطين : أن الواحد هو لا شيء ؛ لأنه فوق كلّ شيء ، ولأنه ليس من الممكن أن يميَّز فيه شيء عن شيء ، ولا أن يتبيّن فيه وجود معيّن ، وهو كلّ شيء ؛ لأنه مبدأ جميع الأشياء ، ومنه ينبثق كلّ شيء ؛ فهو الأشياء ، جميعًا ، ولكنه ليس واحدًا منها .

قال لي قصيّ ، ذات مرّة : إن الإله الواحد هو مبدأ الوجود ، وعلّته . وقد حاولت ، غير مرّة ، أن أعرف منه ، كيف بدأ هذا العالم المحسوس؟ ومتى؟ فاكتفى بالقول : إن المبارك اسمُه ، إلى الأبد ، خلق بعل السماويّ ، صورةً عنه ، وميَّزه بالعقل الناظم للكون ، أمّا بعل السماويّ فخلق بدوره يرحبول ، إلهًا للشمس ، وعجلبول ، إلهًا للقمر ، وهما النفس المتغيِّرة ، في هذا الكون .

لقد تفكّرت ، كثيرًا ، في معاني كلام قصيّ ، وحاولت ، جاهدًا ، أن أحصل منه على شرح يشفي غليلي ، ولكن من دون جدوى ، ولم أدرك معنى كلّ ذلك ، إلاّ حين قرأت لأفلوطين ، كيف أن الفيض عن الأوّل يشبه صدور النور عن الشمس ، وكيف أن الكائن ، حين يبلغ كماله ، يبدع كائنا آخر ؛ إذ لا يطيق أن يحبس خيره في ذاته ، فكلّ موجود يرتبط في وجوده بالأوّل ، دون أن ينقَص منه شيء . والعقل هو أوّل

شيء ينبثق عن الأوّل ، وهو الأقنوم الثاني ، ولذلك هو دون الأوّل ، وأقل منه كمالًا ، فالأقنوم الثاني هو عقل ، ووجود في آنٍ واحد ، ومن هنا مبدأ التكثّر ، والتعدّد ، في العالم . والأقنوم الثاني هو فيض الأقنوم الأوّل الواحد ، وصورة له ، وانعكاس لنوره ، يجتهد قدر الإمكان ، لأنْ يبقى بالقرب من مصدره الذي استفاد منه الوجود ، ولذلك فإنه ، فور صدوره عنه ، يلتفت إليه ؛ ليتأمّله ، ومن هذا الالتفات ، أو التأمّل يتولّد الأقنوم الثاني ، أبديّة خارجة عن الزمان . ويفيض عن العقل جوهر ، أو كينونة ، هي الأقنوم الثالث ، أو النفس الكليّة ، وهي ، أيضا ، صورة للأقنوم الثاني ، وانعكاس لنوره ، وهي آخر الموجودات في عالم العقل ، وخاتمة المطاف ، وهي تنتمي إلى العالم الإلهيّ ، ولكنها دونه درجة ، وعنها ينبثق عالم الطبيعة الذي يبدأ بالنبات المتصف بالحياة ، فقط ، ثم يرقى إلى الحيوان المتصف بالحياة ، والحسّ ، أيضًا ، ثم يرقى إلى الإنسان المتصف بالإضافة إلى الحياة ، والحسّ ، بالنطق ، أيضًا ، فهذه هي المراتب الثلاث للنفس ، الحياة ، فالإحساس ، فالنطق .

كان قصيّ زاهداً متقشّفًا ، ولم أكن أدرك في دواخلي الكنه الحقيقيّ لهذا الزهد والتقشّف ، وإلى ماذا يقود ، إلى أن شرح لي أفلوطين درجات الفضيلة التي يعدُّ الزهد أرفعها ، فبالزهد والتقشّف يعود الإنسان ، مرّة أخرى ؛ ليصبح كائنًا روحيًا ، ممتلئًا بالوجود ، وخاليًا من الخطيئة ، وساعيًا نحو الإله ؛ للتوحّد فيه .

وكان قصيّ ، أيضًا ، متأمّلًا ، بل غارقًا في التأمّل . فقال لي أفلوطين : إن التوحّد مع الإله لا يمكن الوصول إليه ، إلاّ من خلال التأمّل المنزّه عن التفكير ، والذي يوصل إلى مسّ الكائن البدئيّ فينا .

وفي بعض تأمّلات قصيّ ، كنت أراه على حافّة الموت ، بل ظننت ، غير مرّة ، أنه فارق الحياة ، حقًا ، وكنت أتساءل عن سبب ذلك ؛ فأتت الإجابة ، من المعلم ، أفلوطين الذي أخبرني أن قمّة التأمّل تأتي بعد صمت ، ونسيان مطلق ، لكلّ شيء . . . نسيان يصل بالإنسان إلى تلك الشعرة الفاصلة بين الحياة والموت ، ففي هذه اللحظة يكون المتأمّل قادرًا على الوصول إلى الإله ، مصدر الحياة والوجود ، وأصل الأشياء كلّها ، وجذر الروح ، وهذه اللحظة هي المتعة المطلقة ، والنعيم غير القابل للوصف!

هذا ما تعلّمته من قراءة مقالات أفلوطين ، ورأيته مجسَّدًا في حياة قصيّ ، فأفلوطين وقصيّ أصبحا عندي شيئًا واحدًا ، لا يمكن أن أفهم الأوّل ، إلاّ بالثاني ، ولا يمكن أن أؤمن بالثاني ، إلاّ إذا آمنت بالأوّل ، وهذا منحني الإحساس بالكمال ، وجعلني أدرك المعنى العميق لقول قصيّ ، حين كنّا نتأمّل خسوف القمر ، ذات ليلة صيفيّة :

– *الظلام هو انحجاب الضوء ، والجهل هو انحجاب العلم ، والشرّ هو انحجاب الخير .*

أفلاطونوبوليس

أتت الأخبار من روما ، بمقتل الإمبراطور ، غالينوس ، وعمّ الحزن عليه أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة ، وحتى في تدمر نفسها ، فالرجل كان صالحًا ونصيرًا للفلاسفة ، كما قال لونجينوس ، وكان مُقِرًّا ، بشكل أو بآخر ، باستقلال الإمبراطوريّة المشرقيّة ، منذ أيّام أذينة .

كان فاليريان قد تقاسم الإمبراطوريّة مع ولده ، غالينوس ، فاختار الجزء الشرقيّ منها ؛ لوقف الزحف الفارسيّ ، وترك الجزء الغربيّ لغالينوس ؛ لصدّ البرابرة الألمان الزاحفين إلى نهريْ الراين والدانوب . وكان القرار ضروريًا ؛ إذن لم يعد بالإمكان حكم الإمبراطوريّة المترامية الأطراف ، من روما ، ولأن الأعداء كانوا يطلبون التفاوض ، مع الإمبراطور ، مباشرة .

وبعد أسر فاليريان ، ومقتله ، باتت الإمبراطوريّة الشرقيّة ، في مجملها ، بيد أذينة ، فأقرّه غالينوس عليها ، واعترف به شريكا إمبراطوريًا ، كما أسلفنا القول ، وتفرّغ هو لحكم الإمبراطوريّة الغربيّة التي تكاثر عليها الأعداء ، من الخارج والداخل . وكما هو شأن جميع المتآمرين الأنذال ، اختار قتلة

غالينوس لحظة انتصاره الكبرى ، في معركة نايسوس التي حطّم فيها أعداءه البرابرة ، وأباد فلولهم ، خارج تراقيا ، فأعلن أحد هؤلاء المتآمرين ، وهو قائد سلاح الفرسان ، ويدعى أورليوس ، العصيان في ميلانو ، وأعلن نفسه إمبراطورًا ؛ ما اضطر غالينوس للإسراع إليه ، ووضع حدّ لتمرّده ، فهزمه في معركة قرب بلدة نوفو ، وأجبره على الفرار إلى ميلانو ؛ للاحتماء فيها ، ولكن المتآمرين الذين كان يحرّكهم في الخفاء أورليانوس الأليريّ ، نجحوا في اغتيال الإمبراطور ، أثناء الحصار ، وأعلنوا كلاوديوس ، إمبراطورًا ، زاعمين أنه هو الذي اختاره خليفة له ، وهو على فراش الموت!

لقد كوّنت هذه الوفاة المفجعة الحافز الأهمّ ، للمعلم ، أفلوطين ؛ كي يلبّي دعوة صديقه القديم ، لونجينوس للقدوم إلى تدمر ؛ لأن المتآمرين الأليريّين لاحقوا أصدقاء الإمبراطور المغدور ، وأفراد حاشيته ، وقتلوا بعضهم ، ومنهم زثوس العربيّ ، ولم ينجُ من المحيطين به ، سوى زوجته ، سالونينا ، وأبنائه ، وأشقّائه الذين حظوا بعفو خاصّ ، من قائد التمرّد الفعليّ ، أورليانوس ، الكاره لقتل النساء ، والأطفال ، ورجال الدين ، كما كان يشاع عنه!

كانت هذه أعظم مصيبة تواجه أفلوطين ، منذ أن رأت عيناه النور ، فزثوس كان أقرب تلاميذه إليه ، وأحبّهم إلى نفسه ، وقد أَلِف المعلم أن يعامله كما يعامل ابنه ، كأن يلتمس

العزلة في أريافه التي تقع على بعد ستة أميال ، من منثرنا ، في مقاطعة كمبانيا ، أو أن يدخل إلى بيته في روما ، دون استئذان . وزثوس هذا كان أوّل الذين تعرّف إليهم ، حين قدم إلى العاصمة ، فقرّبه إليه ، وتوسّم فيه الخير ؛ لما رآه من فطنته ، وذكائه ، وشهامته التي جعلته يسعى لتزويجه من ابنة صديقه القديم ، ثيودسيوس ، أحد أعضاء الحلقة الضيّقة ، في جماعة معلّمه ، أمونيوس الإسكندريّ .

وما رواه لي مالكوس البتانيّ ، من سيرة هذا المعلّم الفذّ ، ونحن في روما ، بعد هذه الأحداث بسنوات طوال ، أنه ولد في مدينة ليكوبوليس ، في صعيد مصر ، وأنه في الثامنة من عمره ، – وهي السنّ التي ابتدأ فيها بالذهاب إلى المدرسة ؛ لتعلُّم القواعد– كان لا يزال يطلب مرضعته ، فيكشف عن صدرها ؛ ليرضع ، إلى أن سمع ، يومًا ، مَن قال له : أنت صبيّ رديء ، فكفَّ ؛ حياءً .

وحين جاء ، في شبابه إلى الإسكندريّة ، كان يرفض الخوض في أصوله العائليّة ، أو طفولته ، أو محلّ ميلاده ؛ لأنها انتماءات لا علاقة له بها ، ولم يخترها بنفسه ، كما كان يقول لسائليه . ولمّا أدرك الثامنة والعشرين ، من عمره ، انصرف إلى الفلسفة ، فعرَّفه أصدقاؤه بمشاهيرها ، في الإسكندريّة ، ولكنه كان يخرج فاتر الهمّة ، كئيبًا ؛ فشكا أمره إلى أحد أصحابه ، وأدرك هذا الصاحب حاجة نفسه ؛ فانطلق به إلى أمونيوس ،

وكان أفلوطين لا يعرفه ، فما إن دخل ، واستمع إليه ؛ حتى قال لصاحبه :

- *هذا هو الإنسان الذي كنت أبحث عنه!*

ومنذ ذلك اليوم ، دأب أفلوطين على ملازمة أمونيوس ، وأصبح عظيم الاطّلاع على الفلسفة ، بحيث إنه سعى لأن يختبر فلسفة الفرس ، والهنود ، اختباراً مباشراً . وكان الإمبراطور ، غرديانوس يهيّء ، حينذاك ، حملة على بلاد فارس ، فتطوّع في الجيش ، ورافقه ، وهو في التاسعة والثلاثين ، من عمره ، بعد أن تابع دروس أمونيوس ، إحدى عشرة سنة كاملة ، ولكن غرديانوس انهزم ، في بلاد ما بين النهرين ، ونجح بالفرار من المعركة ، ولكن قائد حرسه ، فيليبوس العربيّ ، المشكوك بمسيحيّته ، قتله بتهمة التخاذل في المعركة ، وعقد مع الفرس صلحًا ضَمِن فيه انسحاب القوّات الرومانيّة إلى المناطق الواقعة ، غربيّ الفرات ، ففرّ أفلوطين من الجيش ، والتجأ إلى أنطاكيا ، بعد أن شعر بأن هناك من يحاول قتله ، ومكث في هذه المدينة التي يغلب عليها المسيحيّون ، بعض الوقت ، ورأى بعينيه تناوُل فيليبوس القربان ، من أسقفها ؛ فخاب أمله من الحصول على الحكمة ، في هذا البلد الذي يبارك كبيرُ كهنتها قاتلًا شرّيرًا ؛ فانتقل إلى روما ، ورأى بعينيه ، مجدّدًا ، قبول فيليبوس مباركة كاهن إله الشمس ، بعد أن أعلنه مجلس الشيوخ ، بغالبيّة أعضائه إمبراطورًا مظفّرًا! فكرهه فيليبوس ،

واحتقر تذبذبه بين المسيح ، وإله الشمس ، وحزم أمره على أن لا يتصل به ، أو بأحد من أفراد حاشيته ، واكتفى بإلقاء المحاضرات ، والمطارحات الفلسفيّة ، في مجالس روما .

ولمّا كان قد وُقّع تعاهدٌ بين أفلوطين وزميليه ، هرنيوس ، وأوريجينيوس ؛ للحفاظ على سرّانيّة العقائد التي كان معلّمهم ، أمونيوس ، قد شرحها لهم بوضوح ؛ كونهم أعضاء في الحلقة الضيّقة من تلاميذه ، بقي أفلوطين محتفظًا بتلك التعاليم لنفسه ، وإن كان يجري مطارحاته ، منطلقًا من مجالس أمونيوس . وكانا يحضران مجالسه بين الفينة والأخرى ؛ ليستمعا إلى محاضراته ، وليتأكّدا من أنه لم ينسب أفكار معلّمهم لنفسه . ولكن هرنيوس كان أوّل من أخلف بالعهد ، وكتب مقالات مقتبسة من تعاليم أمونيوس ، ثم تبعه أوريجينيوس ، لكنه لم يكتب إلا المقالة : «في الجنّ» ، وفي أيّام غالينوس ، كتب مقالته : «في أن الملك ، وحده ، هو المبدع» ، وقد أثارت هذه المقالة لغطًا كبيرًا ، حول المقصود من العنوان ، أهو الملك الجالس على العرش ، في روما؟ أم الملك الأعلى؟! أمّا أفلوطين فقد قضى عشر سنوات كاملة ، يجالس عددًا من المستمعين ، ولا يكتب شيئًا ، وخلال هذه السنوات أسّس مدرسته الأفلاطونيّة ، في السنة الثانية ، من إقامته في روما ، وفيها التقى تلميذه ، أميليوس الذي لازمه ، ثلاثةً وعشرين عامًا ، لم يفارقه ، إلاّ في أشهر المرض الأخيرة التي سبقت

صعوده إلى الخدور العلى ، عن ستة وستين عامًا .

وخلال هذه السنوات الطوال التي عاشها في روما ، قدّمه زئوس إلى كثير من أعضاء مجلس الشيوخ المولعين بالفلسفة ، كما عرَّفه على الإمبراطور ، غالينوس ، وزوجته ، سالونينا اللذين آمنا بكرامته ، وأصبحا من أقرب المقرَّبين إليه . ثم إن كثيرًا من أشراف روما ، رجالًا ونساءً ، كانوا ، عند دنوّ آجالهم ، يأتون بأولادهم ، ذكورًا وإناثًا ، ويعهدون إليه بهم ، وبأموالهم ، كأنهم أمام حارس مقدّس ، من عالم الأرباب . ولذلك كان الفتية والفتيات يملؤون عليه داره ، وكان يتتبّع ، بصبر ، حسابات الأوصياء على هؤلاء الأولاد ، ويدقّق فيها ، عن كثب ، قائلًا :

– *مادام هؤلاء الأولاد لم ينقطعوا إلى الفلسفة ، فلا بدّ لهم من أن يحفظوا أرزاقهم ، وغلّاتهم ، بغير مسٍّ .*

ومع ذلك ، وبالرّغم من مساعدته لكلّ هؤلاء الناس ، في مشكلاتهم ، وهمومهم المعيشيّة ، فإنه لم يتوانَ ، قطّ ، عن الانصراف إلى أمور الروح ، ما دام في حالة اليقظة ، ولم ينقطع عن التفكير في إقامة جمهوريّة أفلاطونوبوليس الفاضلة ، حلم المعلم الأوّل ، خصوصًا ، بعد أن انضمّ إلى حلقة مستمعيه الضيّقة عدد من أعضاء مجلس الشيوخ ، ومنهم مرشليس أزنثيوس ، وسابلينوس اللذان كانا قد تجرّدا كليّةً للفلسفة ، وأعلنا اعتزالهما للسياسة . وروغاثيانوس الذي كان أوّل من التزم بقوانين جمهوريّة أفلاطون ، حتى إنه تخلّى عن ماله كلّه ،

وصرف كلّ خدمه ، وتنازل عن منصبه . وكان قد عُيِّن واليًا ، من المفترض أن يخرج إلى المحكمة ، ومن حوله الجلّادون ، فما ذهب ، ولا بالى بوظيفته ؛ بل إنه ما عاد يسكن في قصره ، ولازم المعلم ، أفلوطين ، يعيش على منواله متقشّفًا ، يأكل يومًا وجبة واحدة خالية من اللحم ، ويصوم يومين ، فبرؤ من داء المفاصل الذي كان يعانيه ، وبات يستخدم يديه ، بمهارة أصحاب الحرف اليدويّة ، بعد أن كان عاجزًا عن بسط كفّه . وكان المعلم يحبّه ، ويقدّمه على الجميع ، بالمدح والثناء ، ويتّخذه مثلًا صالحًا ، يضربه ، عند الحديث عن المواطن المثاليّ للجمهوريّة الفاضلة!

وقد سمعت ، أنا حنبل ، من بعض زملائنا المحاضرين ، في أكاديميّة روما الأفلاطونيّة ، أن روغاثيانوس هذا كان هو صاحب فكرة طلب المدينة المهجورة ، في كمبانيا من الإمبراطور ، غالينوس ؛ لكي يقيم عليها المعلم جمهوريّة أفلاطونوبولس ، وأنه سعى ، بكلّ ما يستطيع ؛ للحصول عليها ، مستخدمًا نفوذه الكبير لدى الإمبراطور ، ولكن ذلك كلّه لم ينفع ؛ بسبب وجود كثير من الأعداء ، ضمن الحاشية ، ومجلس الشيوخ .

ولو شئنا الحقيقة ، فإن هؤلاء الأعداء لم يبنوا عداوتهم للمعلم على موقف فلسفيّ منه ، وإنما بسبب عدائهم لأعضاء في مجلس الشيوخ ، انضمّوا إلى حلقات المعلم ، أفلوطين ، الفلسفيّة ، فكسب بذلك كراهية البعض ، من دون أن يكون له

في ذلك حول ، ولا قوّة!

وبحسب وجهة نظر مالكوس البتانيّ ، حين كان يروي لي سيرة معلّمنا ، كانت فكرة المدينة الفاضلة ، في كمبانيا ، مقتصرة على قرية صغيرة مهجورة ، يتجمّع فيها الراغبون في التنعّم بقوانين كاليبوليس ، وهم في غالبيّتهم الساحقة ، من الفلاسفة والمريدين الذين يُعَدّون بالعشرات ، فقط ؛ ولذلك نظر إليها البعض على أنها كانت قرية للانتجاع ، أكثر من كونها جمهوريّة فاضلة ، تقدّم المثال والبرهان على نظريّة المعلم ، أفلاطون!

ولا أظنّ أن أمر مدينة أفلاطونوبوليس كان سخيفًا ، إلى هذا الحدّ ، كما رواه لي مالكوس ، فهو ، كما لاحظت ، درج على التقليل من شأن بعض الأخبار التي لا يكون هو مشاركًا فيها ، لا سيما وأن فشل إقامة الجمهوريّة الفاضلة سبق قدومه إلى روما ، ببضع سنوات ، ولم يكن مسهمًا بالفكرة ، ولا شاهدًا عليها ، وما رواه لي حول أخبارها ، أخذه من أميليوس!

والآن ، وأنا أخطّ هذه السطور ، بعد سنوات طوال من وقوع تلك الأحداث ، لا أجد شخصًا واحدًا ، يفيدني بأخبار أفلاطونوبوليس ، وقصّة فشلها الحقيقيّة ، بعد أن لمست جهل مالكوس بكثير من حيثيّاتها ، وعجزه عن الإجابة عن أسئلتي التي حاولت أن تحيط بالفكرة ، من لحظة ولادتها ، إلى لحظة موتها ، فجميع المشاركين في العمل على تحقيقها باتوا ، الآن ،

تحت التراب ، بمن فيهم أميليوس الذي صُلب مع المصلوبين ، في حمص ، وأستكيوس الذي فارق الحياة ، قبل سنوات قلائل ، في روما ، من دون أن أتمكّن من رؤيته ، مرّة واحدة ، بعد أن غادر أفاميا .

وعلى العموم ؛ فإن جلَّ ماذكرته ، آنفًا ، هو جوهر ما أخبرني به صديقي ، مالكوس ، في جلسات عديدة ، جمعتنا هنا في روما ، حول سيرة معلمنا ، أفلوطين ، قبل قدومه إلى تدمر . وكان هو ، أيْ مالكوس ، قد التقاه قبل وفاته ، بستّ سنوات ، حين أرسله المعلم ، لونجينوس ، بصحبة أنطونيوس الروديّ إلى روما ؛ لكي يتابع دروسه على يديه ، وهو الذي أطلق على مالكوس اسم بورفيريوس ، أيْ المتّشح بالأرجوان ، كناية عن معنى اسمه ، بلغتنا ، ملكو ، أيْ الملك ، وأصلُه – كما أخبرني– من مقاطعة باتانيا المجاورة لجبل حوران ، والتابعة لفينيقيا ، ويُنسب ، أحيانًا ، لمدينة صور ؛ بسبب نشأته فيها ، وسفره إلى أثينا منها ؛ للالتحاق بأكاديميّة المعلم ، لونجينوس الذي أطلق عليه ، حينها اسم باسيليوس ، أيْ الملك ، مترجمًا اسمه إلى اليونانيّة!

المعلم

حين وصل المعلم ، أفلوطين ، إلى تدمر ، بعد طول انتظار ، كان كسيرًا منكوبًا بأعزّ أصدقائه ، كما أسلفنا القول ، فاستقبلته تدمر ، كما لم تستقبل رجلًا آخر ، وكرّمته كما لم تكرِّم رجلًا آخر!

كانت الملكة ، زنوبيا ، في مقدّمة المرحّبين به ، عند بوّابة حمص ، وكان طبيبه ، أستكيوس ، يمسك بيده ؛ ليساعده على المسير ، بعد أن أعيته وعثاء السفر . وحين رأى الحشود بانتظاره ، ترقرقت عيناه بالدموع ، فأقبل على الملكة مصافحًا ، وعانق صديقه القديم ، لونجينوس الذي تعرّف عليه بالكاد ، وهو يقول :

– *ما كان حريًا بكم أن تفعلوا هذا!*

وفجأة ، رفعه الخدم ؛ بناء على إشارة من يد الملكة ، ووضعوه على كرسيّ وثير ، كان معهم ، وحملوه عليه إلى القصر ، وسط موكب كبير ، تخلّلته الهتافات والأهازيج التدمريّة المعروفة ، واصطفّ على جانبي الطريق كثير من النساء والرجال والأطفال ، ملوّحين بأيديهم للمعلم المبارك ، محاولين

استراق نظرة منه ، أو تلويحة من يده .

لم يكن المعلم ، أفلوطين ، عند التدمريّين ، مجرّد فيلسوف ، أو حكيم ، أو معلم ، كان أشبه برسول أتى من الخدور العلى ؛ لينقل رسالة سلام ، طالما انتظرها بنو البشر ، بعد أن عمّ الظلام ، وانتشر الفساد . صحيح أن المبجّل ، قصيًا ، قاد السفينة بحكمة وصبر وأناة ، في بحر متلاطم الأمواج ، وأوصلها إلى برّ الأمان ، إلاّ أن محنة ديانتنا كانت جِدَّ جسيمة ، تحتاج إلى رسول ملهم يضيء الطريق ، أمام العامّة ، ويرشدهم إلى معرفة الحقّ ، قبل أن يقعوا فرائس بين براثن أرباب البدع والضلالات!

في صبيحة اليوم التالي ، غصّ المعبد الكبير بالجموع ، وبعد قليل من الانتظار ، دخلتْ الملكة ، وعلى يمينها المعلم ، أفلوطين ، وعلى يسارها المعلم ، لونجينوس ، يحيط بهم عدد كبير من الشيوخ والفلاسفة ؛ فصدحت الجوقة بالتراتيل التي بدت ، وكأنها آتية من الخدور العلى .

ثم تقدّمْنا قصيّ وأنا ، ومعنا بعض الكهنة والرهبان ، وتوجّهنا إلى حرم الإله ، بل ، حيث كانت المباخر مُعدَّة لحرق الذبائح الإلهيّة .

وبعد أن طهّرنا جميع الحاضرين بالبخور ، بدأ قصيّ بتعداد النذور المقدَّمة إلى الإله ، بل ، في هذا اليوم ، وهو يعرضها على الحاضرين بيديه :

– *هذا المزمار ، وهذا المغزل ، وهذه القوس*

قدّمها للآلهة سلمى وجميلة وسعد

الموسيقيّة قدّمت له مزمارها ؛ لكي تكون أنغامها من وحي الآلهة

والحائكة قدّمت مغزلها ؛ لكي تكون الأولى حرفتها

والنبّال قدّم قوسه ؛ لكي يفوز بجائزة الرمي السريع

أعطى قصيّ التقدمات لأحد المساعدين ، ثم بدأ بقراءة صلاة الصباح لآلهة تدمر ، وهو يحمل بيده صرّة من البخور :

- الكلّ نهض من مخدعه

رُفعت المزالج ، وحُرّر الرِّتاج

وبعد أن كان الناس في صمت وسكون ، إذا بهم يُحدثون جلبة وضجّة

وبينما كانت الأبواب موصدة ، أصبحت الآن مفتوحة

إن آلهة تدمر ، بعل السماويّ ، واللات ، وبل

نهضوا من مخادعهم في الخدور العلى ؛ ليعلنوا أحكامهم في القضايا

أشرق الصبح ، وأصبح القصر عامرًا ، والبادية ضجّت بثغاء النعاج ، ورغاء الجمال

ومن كانت بحقّه دعوى ، فقد استيقظ مبكّرًا

والقاضي العادل أبو اليتامي ، بل ، دخل غرفته المقدّسة

فليحضر ملوك الجنّ ، أبجل وسعد وأشر

فلتحضر العربة المقدّسة ، وليحضر الثور ، ولتحضر الأفعى

فليحضروا جميعهم ؛ ليشهدوا حكمك ، يا سيّد الأحكام

ففي هذه الصرّة التي أحملها ذبيحة لك

قل الحقيقة ؛ من أجلي

ثم ألقى بصمغ الأرز والصنوبر في المذبح المتجمّر ، فتصاعد البخور ، وعبق بالمكان ، فدخل قصيّ حالة الوجد ، وبدأ يردّد هاتف الإله ، بل ، وهو يتحرّك بطيئًا ، باتجاه المعلم ، أفلوطين :

- ها إنني أستهلّ النغم بأنشودة خالدة

أخرجتها لصديق عزيز ، عذب كالعسل

بيدي قيثارة ذهبيّة ، تُصعِّد أعذب النغمات

هلمَّن يا ربّات الشعر بجوقكن المقدّس

ها إنني بينكم أنا بل ، ابن بعل السماويّ ، واللات المقدّسة

صاحب الحصان المجنّح والرمح المثلّث

أيها الروح ، قد كنتَ ، قبلُ ، من البشر ، وها أنت قد أدركت عالم الجنّ

فازدد قربًا من الألوهيّة ، إذ حللت قيود الضرورة التي تلزم البشر

أمّا جوارحك المهيَّجة الرغبات

فقد قهرتها ببأس قلبك ، وإلى شاطىء الأمان المطمئنّ ، سبحت ووصلت

من حومة الرذائل تخلّصت

وأثبتَّ قدم نفسك الطاهرة ، مسترسلًا سهلًا

حيث يسطع النور الربانيّ ، ويقوم العدل بنصاعته ؛ فلا ظلم ولا رذيلة

كنت في ماضيك تنهض ؛ لتنجو من بطش أمواج الحياة المُدمية ، وأعاصيرها المَعيفة

ويومذاك ، إذ كنت في خضمّ اليمّ الهائج الغدّار ،

من مقامات السعادة ، ما أكثر ما ظهرت لك الغاية دانية!

ما أكثر ما كانت رمقات روحك تميل في الشعاب!

إذ تسير من تلقاء ذاتها ، فيرفعها فوق الأفلاك إلى السير السويّ المستديم

أرباب الخلود يكاشفونك بأنوارهم المشعّة

فتبصرها بعينك ، من خلال ظلامك الدامس

إن السبات العميق لم يستولِ ، قطّ ، على جفونك

بل كنت تندفع ؛ فترى بعينيك الكثير والرائع من الأمور التي ربما ما رآها غيرك

طوبى لك ؛ فإنك بين أطهار الجنّ

يا ربّات الشعر حسبكنّ رقصًا وغناءً ؛ إكرامًا لأفلوطين

اكففنَ عن المباهج ؛ فقيثارتي الذهبيّة حسبها إنباءً عن ذلك السعيد في الخلود

وما إن انتهى قصيّ من قراءة هذا الهاتف الذي ألجم الألسن ، وأسال الدموع ، حتى أقبل على أفلوطين ، معانقًا ،

وكانت لحظةٌ ، صمت الجميع فيها ، واكتفوا بالنظر إلى الرجلين المباركين ، وهما واقفان يبسم أحدهما للآخر ، من دون أن يقولا شيئًا ، فالحوار بينهما كان أرفع من اللغة ، وأعظم من أيّ كلمات .

مضى قصيّ ، بعدها ، إلى صومعته ، وتحلّق الحضور حول المعلم الملهم ، الذي بدا التأثّر الشديد عليه ، عازفًا عن أيّ رغبة في الكلام .

وحين اختلينا ، بعد ذهاب الجميع ، رفض قصيّ الإفصاح لي عمّا رآه في عينيّ أفلوطين ، واكتفى بالقول :

– *من عالم الأرباب ، وإلى عالم الأرباب!*

لقد أمضى المعلم ، أفلوطين ، معظم أيّامه التدمريّة خائضًا في جدالات طويلة ، بعضها بحضوري ، أنا حنبل ، وبعضها الآخر في غيابي . البعض من هذه الجلسات كانت تحضرها الملكة ، زنوبيا ، أمّا الحاضرون الدائمون ، فهم مجلس الحكماء الذي يرأسه المعلم ، لونجينوس ، والمكوّن من فلاسفة أفلاطونيّين ، وبلغاء ، ومؤرّخين ، أمثال ، أميليوس ، تلميذ أفلوطين ، ولوبوكوس البيروتيّ اللغويّ الفيلسوف ، وبوسانياس الدمشقيّ الفيلسوف ، وكليكراتس الصوريّ الكاتب المؤرّخ ، ونيوكوماخس الفيلسوف والمؤرّخ ، وفيليب السيثوبوليسيّ الفيلسوف والجغرافيّ .

كانت وجهة نظر لونجينوس ، في معظم جدالاته ، أن

يجري إحياء الثقافة والقيم الهلنستيّة التي كادت تغيب ، وراء دخان الحروب ، وفوضى العقائد ، والأفكار الفاسدة التي يبثّها الغنوصيّون ، والمرقيونيّون ، والمانيّون ، والزرادشتيّون ، وغيرهم من أتباع الفرق الضالّة المضلّة ، المتوالدة بعضها من بعض ، مثل الفطر الخبيث!

في إحدى الجلسات التي حضرتها ، أنا حنبل ، عرض المعلم ، لونجينوس ، خطّته ؛ لإحياء أكاديميّة الإسكندريّة الأفلاطونيّة ، ورفدها بالفلاسفة الأكفياء ، ودعمها بالأوقاف الدارَّة ؛ لكي تعود عاصمة للثقافة الهلنستيّة ، وتنهض بأعباء الإنفاق على الطلاب الفقراء . كما عرض خطّة ؛ لتكليف أميليوس بترؤّس أكاديميّة أفاميا ، وتكريسها لتعاليم المعلم ، أفلوطين ، وخطّة أخرى ؛ لإحياء أكاديميّات أنطاكيا وجدارا وقناثا وديون وديبون وأماتا وسيثوبوليس ونيابوليس ودمشق وصور وجراسيا وفيلادلفيا .

وإذ اتفق الجميع على إمكانيّة إحياء أكاديميّات دمشق وصور ، ومدن الديكابوليس ، على وجه السرعة ، بتعيين رؤساء لهذه الأكاديميّات ، من أتباع عقيدتنا ، رأى غالبيّة الأعضاء أن مشكلة أنطاكيا كانت أعظم من أن تُحلّ بإحياء أكاديميّة فلسفيّة ، أو باستبدال رئيسها ، فالمدينة كانت قد وقعت ، منذ وقت طويل ، فريسةً للعقائد الضالّة ، وانتقل الجدال فيها ، من المجالس والمنابر إلى القتال في الشوارع ، بين جماعة والينا على المدينة ، الأسقف

بولس السميساطيّ ، القائل بوحدانيّة الخالق ، وبإنسيّة المسيح ، وبين جماعة ملكون ، مدّعي ألوهة يسوع الجليليّ .

ومن سخريات هذا الزمن أنّ ملكون نفسه كان رئيس أكاديميّة أنطاكيا الفلسفيّة ، ولكنه في الوقت نفسه ، كان من أشدّ المعادين للفلاسفة! وحين جادله بولس في أن الأب والابن والروح القدس ليسوا سوى أقنوم واحد ، مفنّدًا الادّعاء بأنهما ثلاثة أقانيم منفصلة ، لم يجد ملكون لديه أيّ حجة للردّ ، فانبرى مجرِّدًا حملة شعواء ، تناولت شخص الأسقف بولس ، متّهمًا إيّاه بجمع ثروة طائلة سلبَها- بحسب زعمه- من المؤمنين البسطاء ، بأعمال الغشّ والكذب والخداع ، وخرق القوانين الكنسيّة ، وانتهاك حرمة المعابد!

وحين وجد ملكون أن هذه الاتّهامات قد تهاوت ، أمام حقيقة أن الأموال التي كان يجمعها هي ضرائب كلّفته الدولة بجمعها ؛ كونه الوالي الذي عيّنته ملكتنا زنوبيا ، بدأ بحملة أخرى طالت أخلاق الرجل ، ومسلكه الشخصيّ ، اتّهمه فيها باقتراف الموبقات ، والتصرّفات المشينة ، والتنعّم بالمأكل والمشرب ، هو وبطانته الفاسدة ، ومعاشرته النسوة الساقطات ؛ الأمر الذي شكّك المؤمنين ، وأساء إلى سمعة الكنيسة! بحسب المعروض الذي تقدّم به ملكون إلى مجمع كنسيّ كبير ، عُقد في أنطاكيا ؛ لبحث أمر بولس السميساطيّ ، وهرطقته الخبيثة!

وبرغم دفاع بولس القويّ عن نفسه في المجمع ، وتفنيده جميع التُّهم التي ساقها ملكون وجماعته ، بالأدلّة الدامغة ، أصدر المجتمعون في المجمع قرار الحرم الكنسيّ ، ضدّ بولس ، وعيّنوا بدلًا منه أسقفًا آخر . ومع ذلك بقي القرار بلا تنفيذ ؛ لأن أحدًا لم يستطع إجبار بولس على الامتثال للقرار ، أو قبوله بمغادرة دار الأسقفيّة ، ولذلك راسل ملكون وحزبه أوريليانوس الذي لم يكن قد أصبح إمبراطورًا ، في ذلك الوقت ، وكتب إلى عدد من أعضاء مجلس الشيوخ المعادين لتدمر وزنوبيا ؛ مستنجدًا بهم للخلاص من بولس ، وحطّه عن الكرسيّ الأسقفيّ ، مقابل العمل ضدّ ملكتنا زنوبيا!

وفي العودة إلى اجتماعات مجلس الحكماء في تدمر ، فقد حضرت جلسة كانت النقاشات فيها مخصّصة للحديث عن الحكم الرشيد العادل ، والولاة ونوعيّتهم ، والرقابة على سلوكهم . وكانت مخاوف المعلم ، أفلوطين التي عبّر عنها بقلق ، من المصير الذي ينتظر المخالفين ، بعد أن رأى حماسة بعض المتحدّثين لتطبيق قوانين كاليبوليس بالقوّة ، إن لزم الأمر . بل وصل الأمر بلوبوكوس البيروتيّ أن دعا لإنشاء قوّة سريّة لمراقبة الناس ، ورصد مواقفهم من المدينة الفاضلة ، والتعامل بحسم مع المخالفين الخطرين .

وقد ردّ المعلم على لوبوكوس ، وعلى محيّاه علامات الغضب ، بالقول :

- هل تريد يا لوبوكوس أن يلعننا المعلم ، أفلاطون ، من قبره؟! حين نتحدّث عن مدينة فاضلة ، فنحن نقصد أنها فاضلة في كلّ شيء ، حتى مع رافضيها . هدفنا هو إقناع المخالفين بوجهة نظرنا ؛ بالمثل الأعلى ، لا برزم الجلادين!

فقال لوبوكوس :

- إذن ، كيف تفسّر أيها المعلم ، قول معلمنا ، أفلاطون : إن على الدولة الفاضلة أن تعاقب المجرم ، لا البريء ، وتكافىء الإنسان الخيِّر ، لا الشرير؟ ألا يقرّ المعلم بمبدأ العقاب والثواب ؛ إذن؟

استعاد المعلم ، أفلوطين ، هدوءه ، وهو يقول :

- قبل أن تفكّر بفرض العقوبات ، لا تنسَ أن الغاية من الدولة الفاضلة هي إسعاد الأفراد ؛ لبلوغ الحكمة والفضيلة ، وأن خير وسيلة لإعانة الأفراد على الوصول إلى تلك الغاية هي التربية ، فالتربية هي أهمّ واجبات الدولة ، وليس مراقبة الأفكار ، والوصاية على الناس الأحرار ، وسنّ العقوبات . . . لا ينبغي يا لوبوكوس ، أن نفكّر بالعقاب ، قبل أن نشرع بالتربية الطويلة المديدة التي تهيّء الإنسان لبلوغ الكمال .

اكتفى لوبوكوس بالصمت ، ومداراة حرجه ، بالالتفات إلى الجهة الأخرى ، فربّت المعلم ، لونجينوس على كتفه ، وقال :

- بعض الحماسة لا تضير!

ولكن ، ومع تعمّق النقاشات ، بدا أن خلافًا عميقًا يفصل

بين المعلمَين ، حول الأولويّة في تطبيق قوانين كاليبوليس ، إن كانت على الدولة برمّتها ، من الأعلى إلى الأسفل ، وهذا كان رأي لونجينوس ، أم من الأسفل إلى الأعلى ، وهذا كان رأي أفلوطين .

كان لونجينوس يرى أن الحاكم الأعلى ، حين يفرض القوانين ، تكون لها قوّة ملزمة ، وبذلك يصنع المثال لمن هم أدنى منه ، وخلال عام ، أو عامين ، تكون الجمهوريّة الفاضلة قائمة على أرض الواقع ، في حين كان رأي أفلوطين يتلخّص في أن التدرّج ، من الأسفل إلى الأعلى أنجع ، وأكثر جدوى ، وأن تجربة تطبيق القوانين الأفلاطونيّة ، من قبل الولاة على مدنهم ، أوّلًا ، ستقود إلى مدن فاضلة ، تفضي في نهاية المطاف إلى دولة الفضيلة ، خلال جيل واحد ، أو جيلين ، على الأكثر!

وكان لونجينوس يعتقد بأن إجراءات أخذ الأطفال من ذويهم ، وتربيتهم تربية أفلاطونيّة ، بمعزل عن أيّ انتماء أسريّ ، أو قبَليّ ، ينبغي أن تبدأ ، فورًا . ولكن أفلوطين كان يرى أن إلغاء الأسرة ، فوريًا ؛ سيتسبّب بنقمة اجتماعيّة كبرى ؛ ستولّد ثورة ضدّ الدولة ، ولذلك كان يعتقد بأن هذه القوانين المتعلّقة بالعائلة والأطفال وتربيتهم ، لا تتوافق والواقع في كثير من المدن التي يسكنها شرقيّون ، تحرّكهم النوازع الأسريّة والقبليّة ، وروابط الدم ، وهي ، ربما ، تصلح لمجتمع مثاليّ بلغ أهلُه الكمال الروحيّ ، أمّا الآن فالأمر لا ينبغي أن يكون خارجًا عن إرادة

الأبوين ، وعمليّة انتقاء الحرّاس ، والحكام المستقبليّين ، من هؤلاء الأطفال يمكن أن تكون ، من دون إلغاء الأسرة!

لم يُحسَم الخلاف بين المعلمَين ، ولاحظت أن زنوبيا كانت ميّالة إلى أفلوطين ، في رأيه ، برغم تحاشيها الخوض في نقاشات هذا الأمر ، فتحديّات السلطة التي كانت تواجهها تجعلها تميل إلى فكرة التدرّج في تطبيق القوانين ، والبحث في الحلول العمليّة المثلى ؛ لتحقّق الأفكار التي ينطوي عليها كتاب الجمهوريّة .

وكان شاغلها الأوّل والأخير ، في بحثها وتفكيرها ؛ موضوع التربية الأفلاطونيّة التي كانت ترى بأنها ينبغي أن تحقّق فكرة جوهريّة في فلسفة المعلم الأوّل ، وهي فكرة الانسجام ، فالانسجام بين طبقات المجتمع هو تحقيق العدالة ، على مستوى الدولة ، والانسجام بين أجزاء الجسد وأعضائه هو الطريق لسعادة الفرد ، كما كان يقول المعلم .

وفي النقاشات كانت تركّز على أن الفرد هو المقصود بالتربية الأفلاطونيّة ، وليس المجموع ، وأن تحقيق الانسجام في ذات الفرد ، بين ما هو روحيّ وجسديّ ، يتوقّف على طرائق التربية والتعليم ، في سنّ مبكّرة ، والتي يكوّن تعليم الموسيقا والرياضة البدنيّة منطلقها وأساسها .

وكانت تقول :

– *إن الموسيقا ، من حيث هي انسجام بين الأنغام*

والنبرات ، تتوجّه إلى الروح ؛ لتعويدها على الانسجام مع كلّ ما هو جميل ، ونبذ كلّ ما هو قبيح .

ولكنها كانت تستدرك بالقول :

- إذا كان التعليم الموسيقيّ ضروريًا للنفس ، فإنه غير كاف ، بل إن المبالغة فيه ، والاكتفاء به سيؤدّي إلى أن تصبح هذه النفس رقيقة ، ضعيفة ، سهلة التأثّر ؛ ولهذا وجب تعليمها القوّة ، وهذا لا يتأتّى إلا بتربية بدنيّة تتوخّى تقوية عود الجسم ، وزرع قيم الشجاعة فيه .

وقد بدا للجميع أن ثمّة انسجامًا بين ما يطرحه المعلم ، أفلوطين ، من أفكار وشروحات ، وبين مداخلات الملكة ، وتعليقاتها ، ولكنه كان انسجامًا خفيًا حرصت الملكة ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا ، على أن لا يبدو اصطفافًا في مواجهة المعلم ، لونجينوس ، وما يطرحه ، ويدافع عنه ، في الجلسات .

ويومًا إثر يوم ؛ كان التعب الشديد يظهر على وجه المعلم ، أفلوطين ، إذ بدأت القروح تظهر ، وتنتشر في جسده المتعب ، ولم تنفع معها ، لا المراهم ، ولا الحمّامات الحارّة التي زارها ، داخل تدمر ، وخارجها ؛ فأعلن طبيبه ، أستكيوس ، أن الجوّ الجافّ هو السبب في تراجع صحّة المعلم ، ولا بدّ أن يغادر إلى مكان رطب ، فكان رأي الجميع أن يرافق أميليوس إلى أفاميا ، ذات الجوّ المعتدل ، والهواء العليل .

وهكذا ، غادر المعلم ، أفلوطين ، تدمر برفقة تلميذيه المخلصين ، بعد أكثر من شهرين أمضاهما فيها ، لم يدّخر جهدًا ، برغم إعيائه الشديد ، في المشاركة بجلسات النقاش الطويلة ، ولم يبخل برأي ناصح ، أو رؤية حكيمة ، يمكن أن تساعد على النجاح ، في تحقيق فكرة الدولة الفاضلة .

وفي أفاميا ؛ تحسّنت صحّته كثيرا ، بعد أن خُصّصت له دارة واسعة تجاور نهر العاصي ، وتحيط بها الحدائق الغنّاء ، وأشجار الفاكهة ، من كلّ صوب ، ويقوم على خدمته فيها عدد من الرجال والنساء ، جُلّهم من أتباع فلسفته .

وحين بدا أن المرض بات يبتعد عنه ، يومًا إثر يوم ، أشرف على إعادة تأسيس الأكاديميّة بنفسه ، ووضع منهاجها ، بالتعاون مع أميليوس ، ورأى بعينيه الأعداد الكبيرة من الطلاب ، وهي تواظب على حضور المحاضرات .

وقد أشاع الإقبال الكبير على المحاضرات أملًا في نفس المعلم ؛ فراسل الملكة زنوبيا ، يستأذنها بفرض بعض قوانين كاليبوليس على أفاميا ، فأتاه الردّ بالإيجاب ، وشرع ، من فوره ، بمساعدة من تلميذيه ، أميليوس وأستكيوس ، مع والي المدينة الجديد ، زينودوروس بن سلوانوس ، وهو فيلسوف شابّ ، من أخلص مريديه ، خارج حلقة روما الضيّقة ، بوضع القواعد الأفلاطونيّة التي اختارها ، بعناية ، موضع التطبيق .

وحضرت الملكة ، بعد أيّام ، إلى المدينة ؛ لتدشّن بنفسها

إعادة تأسيس المدينة ، وفق القوانين الأفلاطونيّة ، وكنت ، أنا حنبل ، بصحبتها مع بعض أعضاء مجلس الحكماء الذين أوفدهم المعلم ، لونجينوس ، نيابة عنه ، إذ ، منعه عارض صحيّ طارىء من القدوم!

وكان القانون الأوّل الذي وُضع موضع التطبيق ، ذلك الذي يشترط على حكّام المدينة أن يعيشوا معيشة مشتركة ، وأن لا تكون لديهم ملكيّة خاصّة . وبدأ الوالي ، زينودوروس ، التدشين بنفسه ، وتنازل عن جميع ممتلكاته ، وتخلّى عن قصره ، وأمر بتحويله إلى مدرسة لتعليم الموسيقا للأطفال ، وحذا حذوه أعضاء مجلس المدينة ؛ فتخلّوا عن ممتلكاتهم ، واكتفوا بالحدود الدنيا للعيش ، وخصّصوا جُلّ وقتهم لخدمة الناس . أمّا القوانين الأخرى ، كإلغاء الملكيّة الخاصّة لعموم المواطنين ، وإلغاء العائلة ، وإشراف الدولة على تربية الأطفال وتنشئتهم ، ومنع المواطنين من العمل في التجارة والصناعة ، فكان المعلم ، أفلوطين ، يرى بأنها ستكون نتيجة طبيعيّة للتربية الطويلة ، وبعيدًا عن أيّ إكراه .

كان هذا أقصى طموح للمعلم في شيخوخته ، فحلْم المدينة الفاضلة بات حقيقة ، أمام عينيه ، ولا سيّما أن مشروع مدينة أفلاطونوبوليس الفاشل ، في كمبانيا ، لم يكن ليصل إلى عُشر ما تحقّق في أفاميا! ولكن جسده لم يسعفه أكثر من ذلك ؛ فعادت القروح لتنتشر من جديد في جسده المُتعَب ، ولم

تنفع المراهم العُشبيّة التي سبقت أن شفته من هجمة المرض الأولى ، ولا حمّامات التدليك بزيت الغار ، فنصحه أستكيوس بالعودة إلى مزرعة زثوس ، في كمبانيا ، المكان الأثير عنده ؛ علّه يحظى بالشفاء هناك ، وكان ذلك في اليوم العاشر ، من الشهر الرابع ، من السنة الثانية لكلاوديوس الثاني .

عودة الأحزان

لم يمضِ وقت طويل على وصول المعلم ، أفلوطين ، إلى مزرعة زثوس ، حتى فارق الحياة .

وقد أخبرنا أستكيوس ، حين التقيناه في روما : أن الداء اشتدّ على المعلم ، في أفاميا ، حتى فقد صوتُه صداه ، وجرسه ، وأخذته البحّة ، ثم شحّ بصره ، وحين وصل إلى روما ، انتشرت القروح في يديه ورجليه ؛ فأخذ أصحابه يتجنّبون الالتقاء به ؛ لأنه درج ، كلّما لقي أحدهم ، على أن يحيّيه بقبلة ، وحين شعر بدنوّ أجله ، طلب أن ينقلوه إلى مزرعة زثوس ، في كمبانيا . وكان أستكيوس قد أبطأ في القدوم إليه ؛ بسبب الشكوك في أن مرضه هو الجذام ؛ فأرسل رسالة كتب فيها :

- *لا أزال أنتظرك .*

ثم أردف :

- *أحاول أن أردَّ ما هو إلهيٌّ فينا ، إلى ماهو إلهيٌّ في الوجود .*

وكانت أفعى تمرُّ ، تحت السرير الذي كان ممدّدًا عليه ،

فتنساب في ثقب من الجدار ، ولفظ روحه ، وله من العمر ، على حدّ قول أستكيوس ، ستّة وستّون عامًا . وكان ذلك في أواخر السنة الثانية ، من ملك كلاوديوس .

كان وقع الخبر صعبًا على زنوبيا ولونجينوس ، إذ أعلنت المملكة الحداد ، لمدّة سبعة أيّام ، لم يكن يقام فيها أيّ مظهر من مظاهر الاحتفال ، واحتجبت الملكة ، خلال هذه المدّة عن العيون ، أمّا قصيّ فلم يبدُ عليه أيّ حزن ، إذ قال عند سماعه الخبر :

– *لقد خلع رداء الجسد ، بعد أن بلغ الكمال ، ورجع إلى الإله ، كما سنرجع أجمعين!*

وبعد وفاة المعلم بأيّام ، مات الإمبراطور ، كلاوديوس الثاني ، بالطاعون في سرميوم ، وخلفه شقيقه ، كوينتيلوس ، قبل أن يقتله أورليانوس ، ويجلس على عرش روما ، مدعومًا بتأييد مجلس الشيوخ ، وفور جلوسه على العرش أصدر قرارًا بتأليه الإمبراطور القتيل ، غالينوس ، محاولًا التبرُّؤ من جريمة قتله التي كانت تلاحقه ، أينما حلّ!

في بداية حكمه ، اعترف أورليانوس بوهب اللات ، إمبراطورًا على الولايات الشرقيّة ، وأقرّ العلاقة بين جناحي الإمبراطوريّة الرومانيّة ، كما كانت عليها الأمور ، أيّام فاليريان وغالينوس ، وسُكّت النقود ، في مصر بوجهين ، أحدهما عليه صورة وهب اللات ، بجميع الألقاب الإمبراطوريّة ، والآخر عليه صورة أورليانوس .

ولكنه ، وبعد أن حقّق انتصارات مهمّة على القوط والألمان ، بدأ يغازل أعضاء مجلس الشيوخ الناقمين على زنوبيا ، وكانت تصل إلى الملكة رسائل ، من بعض أصدقائها ، في المجلس ، تخبرها بحقيقة الموقف ، وبأن أورليانوس أقسم ، أمامهم ، بأنه سيستعيد الشرق ، وأن هذه الاستعادة مسألة وقت ، ريثما ينتهي من قتال القوط والبرابرة الألمان ، ويبعدهم ، من جديد ، إلى الشمال!

وكانت النقمة على زنوبيا تتصاعد ، يومًا إثر يوم ، في روما ، بعد أن شحّت إمدادات القمح عنها ، وبدأ الجوع فيها يكشّر عن أنيابه .

وفي حقيقة الأمر ، لم تقطع الملكة القمح ، ولم تأمر تجّاره بالامتناع عن شحنه إلى الإمبراطوريّة الغربيّة ، ولكن هجمات القوط على الأراضي التي تعبرها الطريق البريّة إلى روما ، من مناطق تراقيا وتسالونيك ، هي التي أوقفت قوافل القمح ، وجعلت العاصمة تجوع . ومع ذلك لم يرغب أعضاء مجلس الشيوخ في تبرئة الملكة ، زنوبيا ، من هذه الفِرْية ، والنظر إلى السبب الحقيقيّ ، فكانوا يرسلون الرسائل لأورليانوس ، محرّضين على تدمر ، وملكتها ، ولونجينوس ، مدّعين أنه هو الذي أشار عليها بهذه المشورة الخبيثة!

لم تعد زنوبيا تحضر جلسات مجلس الحكماء ، إلا لمامًا ، وباتت تقضي معظم وقتها مع قادة القوّات ، وأعضاء مجلس

شيوخ تدمر ؛ لبحث طرق مواجهة الخطر المقبل ، إن عاجلًا ، أو آجلًا ، من جهة الشمال . فعادت إلى شوارع تدمر مظاهر الحرب ، وإلى البراري المحيطة بها معسكراتُ التدريب والتحشيد .

أمّا قصيّ فتلبّسته حالة من الحزن والكدر ، وبات يقضي معظم وقته في غار الجبل ، ولم يعد راغبًا في الحديث معي ، ولكن ، وبطلب من زنوبيا ، حضر من الغار ، وأشرف على طقس تكريس ثلاثة تماثيل ، لأذينة وزنوبيا ووهب اللات ، أقامها كلٌّ من قائد قوّات تدمر ، زباي ، وقائد قوّات الإمبراطوريّة ، زبداي ، معلنين من خلال هذا التكريس حالة الحرب في جميع أرجاء المشرق ومصر .

وظهرت زنوبيا ، مرّات عدّة ، في شوارع تدمر على عربتها ، بلباس الحرب ، وإلى جانبها وهب اللات ، قبل أن تطوف بصحبة القائد ، زبداي ، على بعض الولايات ؛ للوقوف على حقيقة الاستعدادت للمعركة ، وموقف الناس من ذلك . وحين عادت اجتمعت بنا ، جميعًا ، مجلس الحكماء ، ومجلس الشيوخ ، وكان رأيها أن الألوية المحليّة العاملة في الأقاليم تحتاج إلى التدريب والعمل ، ضمن أنساق الجيوش الكبرى ، وهذا ما وعد زبداي بتحقيقه ، خلال الفترة المقبلة ، بعد أن شحن هذه الألوية المحليّة بضبّاط متمرّسين على المعارك .

أمّا الثغرة الكبرى التي تحدّثتْ عنها الملكة ، وأرادت لها

حلًا ، فهي قوّات القبائل ، عماد أيّ معركة كبرى في المشرق ، فمن يمتلك هذه القوّات يمتلك النصر ، كما قالت ، واقترحت على قصيّ ، ومن شاء أن يصطحب معه ، أن يحاول إقناع جذيمة بن مالك بالوقوف مع تدمر ، إن هاجمتها قوّات أورليانوس .

وحين عدنا إلى المعبد ، قال لي قصيّ :

– *ما يحزّ في النفس ، أن هذا الجيش الجبّار الذي يقوده ، الآن ، الخبيث جذيمة ، كان قد أنشأه أذينة لمثل هذا اليوم .*

قلت له :

– *وماذا ستفعل أيها المبجّل؟*

قال :

– *لا بدّ أن أذهب ، وأستحثّه على الوفاء لأذينة ، قبل الوفاء لتدمر . . . برغم علمي بأن هذا الخبيث لن يستجيب .*

وقبل أن يمضي كلٌّ منّا إلى حجرته ، توقّف ، وقال لي بلهجة حاسمة :

– *ستذهب معي!*

انطلقنا ، في صبيحة اليوم التالي ، باتجاه الشمال ، إلى معسكر خناصرة ، حيث كان يقيم جذيمة ، وسرنا لمدّة ثلاثة أيّام ، على ظهور الجمال ، ترافقنا ثلّة من الجنود ، ودليل بدويّ ، إلى أن وصلنا إلى المعسكر .

كانت الخيام تنتشر على مسافة شاسعة ، والجنود الراجلون

والخيّالة وراكبو الجمال يملأون المكان ، وحين وصلنا إلى خيمة جذيمة الوثيرة ، ورأى الجنود لباسنا الأبيض ، وقبّعات اللبد التي تغطي رؤسنا ، هرعوا مرحّبين بنا ، طالبين البركة .

ولم ننتظر ، طويلًا ، حتى وصل جذيمة محاطًا برجاله ، قادماً من البريّة ، يرتدي لباس الحرب ، فأقبل على قصيّ ، معانقًا ، وصافحني ، دون أن ينظر إليّ .

كان في منتصف العمر ، أزرق العينين ، أشقر اللحية ، بوجه أحمر لوّحتْه الشمس ، ولم تكن نظراته ، ولا التفاتاته مريحة ، بل كان اللؤم يقطر من ملامحه .

وبعد أن دعانا للجلوس ، قال لقصيّ :

– *لقد أطلت الغيبة عنّا ، أيها المبجَّل .*

فقال له قصيّ :

– *أيها الملك ، لم أعتد أن أزور أحدًا ، ولكنني ، الآن ، في مهمّة .*

رمق جذيمة قصيًا بلؤم ، وقال :

– *قل إذن .*

قال قصيّ :

– *أحمل لك رسالة من الملكة ، زنوبيا ، تذكّرك فيها بقسمك القديم ، أمام أذينة ، بأن تخلص له ولتدمر ، وأن تردّ عنها أيّ غائلة .*

قال جذيمة :

- وهل ثمّة غائلة تهدّد تدمر ، ولا نعلم بها؟!

فقال قصيّ :

- أورليانوس صعد على عرش روما ، وبدأ يهدّد تدمر .

تصنَّع جذيمة الدهشة ، وقال :

- وماذا تريدون منّي أن أفعل؟

قال قصيّ :

- أن تبرَّ بقسمك لأذينة ، وتقف مع تدمر ، إن وقعت الحرب .

فقال جذيمة ، وكأنه كان ينتظر إعادة هذه الجملة :

- بماذا تفسّر أيها المبجّل ، امتناعنا عن مهاجمة تدمر ، وأخذها عنوة ، كلّ هذه المدّة؟ إنه ذلك القسم لأذينة! ولذلك أريد أن أعرف منك ، بالضبط ، على ماذا سأحصل ، الآن ، إن فعلت ذلك ، وحميت تدمر؟

فقال قصيّ :

- على الغنائم كلّها .

ضحك جذيمة ضحكة طويلة ، وهو ينظر إلى الرجال الجالسين حوله ، مبتسمين ، وقال :

- الغنائم- كما تعلم أيها المبجّل- هي لي ، وليست أعطية من أحد . . أنا أريد منكم مقابلًا يعدل وقوفي إلى جانبكم ، في هذه المحنة .

قال قصيّ :

- *ماذا تريد؟*

قال جذيمة ، باسمًا :

- *الزوّاج بزنوبيا .*

امتقع قصيّ ، ومادت بي الأرض ، فأردف جذيمة :

- *نضمّ مملكتي إلى مملكتها ، وعند ذلك لن يقدر أحد على إلحاق الأذى ، لا بتدمر ، ولا بأيّ مكان ، في هذه الديار .*

قال قصيّ ، متملّصًا من مناقشة الأمر :

- أما والأمر بات هكذا ، فعليَّ أن أعود ؛ لأخبر أولي الأمر ، وهم أصحاب القرار ، في مثل هذه الأمور .

ضحك جذيمة ضحكة المنتصر ، وقال :

- *لتأخذ الملكة وقتها . . . لست في عجلة من أمري .*

قفلنا عائدين إلى تدمر ، وكان قصيّ ، طوال الطريق ، صامتًا ، إلا إذا طرحت عليه سؤالًا ، فقلت له محاولًا سبر غوره :

- *أيها المبجّل ، هل ستخبر الملكة بطلب جذيمة؟*

قال :

- ولم لا؟ سأخبرها ، ولكنها سترفض .

وحين اجتمعنا ، فور عودتنا ، بالملكة ، وأطلعناها على فحوى الحوار ، اكتفت بالقول :

- *سنعرض عليه الذهب ، ولا شيء غير الذهب .*

وبعد أيّام عدنا ، قصيّ وأنا ، إلى معسكر جذيمة ، فوجدنا عنده عددًا من قساوسة أنطاكيا ، وقد ظنّ ، في بداية الأمر ،

أننا حضرنا ؛ لنبشّره بقبول زنوبيا الزواج به ، فأقبل علينا مرحِّبًا ، وحين عرضنا عليه الذهب ، تبسّم ، بخبث ، وهزّ رأسه هزّات عديدة ، وهو يقول :

- *قبلت الذهب ، وإن كان قلبي يريد ما هو أغلى من الذهب!*

حيْرة الملكة

لم أعتد أن أرى الملكة حزينة حائرة في أمرها ، كما بتُّ أراها ، في هذه الأيّام التي أعقبت عودتنا ، من معسكر جذيمة .

كنت مواظبًا على إقامة الذبيحة ، بعد صلاة الصباح ، كلّ يوم ، وكانت الملكة تحضرها ، وحدها ، في غالب الأيّام ، ثم تقف أمام تماثيل الآلهة ، وتغمض عينيها لبعض الوقت . كان لا بدّ أن تتّخذ قرارًا ، بعد أن تأكّدت لها حقيقة جذيمة المراوغة ، وبعد أن أفصح أورليانوس عمّا يكنُّه لتدمر!

في أحد الأيّام ، سألتني ، أنا حنبل ، عن جذيمة ، كيف رأيته؟

فأجبتها بالقول :

– *لم أرتح له ، وهو لم يرتح لوجودي ؛ بل ، ربما لم ينظر إليّ ، في الزيارتين أكثر من نظرة عابرة مليئة باللؤم والرِّيبة!*

قالت :

– *لماذا برأيك؟*

قلت :

– *من صفات المخادع أنه لا يستطيع مخاطبة شخصين ، في*

آن معًا ، فعيونه تفضحه ؛ لأنه يُبطن ما لا يُظهر!

قالت :

- علينا اتّقاء شرّه ، الآن ، فالأخبار التي تصلني من أصدقائنا في روما ، تقول : إنه لم يتوقّف ، لحظة ، عن إرسال البعوث والهدايا إلى قادة الجيوش ، وإلى بعض أعضاء مجلس الشيوخ الذين يناصبوننا العداء .

قلت :

- وماذا يريد من ذلك؟

قالت :

- تسليمه أمر الولايات الشرقيّة ، وإطلاق يده فيها مقابل إعادتها لروما .

في ظهيرة ذلك اليوم ، اجتمعت الملكة بمجلس الحكماء ، وكنت ، أنا حنبل ، حاضرًا . وبعد أن عرضت علينا حقيقة الموقف العسكريّ ، على جميع الجبهات ، وقف المعلم ، لونجينوس ، وقال ، مخاطبًا الجميع :

- علينا أن نقاتل ؛ للدفاع عن دولة الفضيلة ، فإن كُتب النصر لتدمر ، فسيسود الخير لأجيال عديدة مقبلة ، وإن كُتبت الهزيمة ، فلن تقوم قائمة للفضيلة والعدل ، بعد ذلك ، في هذا العالم ، وسيبتعد حلم أفلاطون عنّا ، سنوات طوالاً ، وربما ، لن ندرك عودته من جديد!

وبعد أن جلس المعلم ، قال بوسانياس الدمشقيّ :

- أعتقد بأنه بات لزامًا علينا ، الآن ، أن نحدّد حدود دولة الفضيلة التي ينبغي الدفاع عنها ، وأنا أرى أنها الولايات الشرقيّة التي تتكلّم لغتنا ، وتؤمن بآلهتنا .

التفت لونجينوس نحو بوسانياس ، مستهجنًا ، وهو يقول :

- هل نتخلّى عن مصر والإسكندريّة ، وهما ركيزة من ركائز دولة الفضيلة التي حلمنا بتحقيقها ، يا بوسانياس؟

فردّ بوسانياس ، من فوره ، وكأنه كان ينتظر السؤال :

- إن مصر والإسكندريّة لم يكونا ضمن حساباتنا ، حين رسمنا حدود الدولة ، والرومان لن يتخلّوا لنا عنهما ، بسهولة ، وهما ، لم يكونا ضمن أملاك إمبراطوريّة المشرق ، في اتفاق القسمة بين الإمبراطورين ، أذينة وغالينوس .

وهنا تدخّل كليكراتس الصوريّ ، وقال وهو ينظر إلى لونجينوس :

- أنا من رأي بوسانياس ، فمصر يمكن أن تكون ورقة للمقايضة ، ويمكن بحث إعادتها لسيادة روما ، إن حصلنا على اعتراف أورليانوس من جديد بإمبراطوريّة المشرق ، وتعهّده بالامتناع عن مهاجمتنا ، وربما كان في وضع يسمح لنا أن نفرض عليه هذه الصفقة!

بدا التململ على المعلم ، لونجينوس ، وهو المشهور بسعة صدره ، وقال ، مخاطبًا كليكراتس :

- حدود دولة الفضيلة لا يمكن أن تقاس بجنس ، أو بلغة ،

أو بحيّز مكانيّ ؛ لأنها انتماء فكريّ مترفّع عن صغائر العصبيّات ، وهي حدود لا يمكن المساومة عليها ، تحت أيّ ذريعة كانت ، ومتى كانت المبادىء خاضعة للمساومة ، يا كليكراتس؟! ليس أمامنا سوى القتال ؛ للحفاظ على الحدود الحاليّة للإمبراطوريّة ، وإن واتت الظروف ، فالانطلاق إلى روما نفسها ، والتخلّص من طغمة الشرّ الجالسة ، هناك في القصر والمجلس .

اجتماع الملكة الثاني كان في مجلس الشيوخ ، بحضور المكرَّم ، ورود بن خيران ، وقادة القوّات ، زبداي ، وزباي ، وسعداللات .

لم أحضر الاجتماع ، ولكنني علمت بفحوى نقاشاته التي أظهرت انقسامًا كبيرًا ، بين الشيوخ أنفسهم ، ومع قادة القوّات ؛ ما زاد في حيرة الملكة .

كان رأي عدد مهمّ من الشيوخ ، أن يجري الاتصال بالفرس ؛ للحصول على دعمهم ، ولا سيّما وأن شابور قد فارق الحياة ، أخيرًا ، ويجلس ، الآن ، على تختـه نجلُه ، أهورامزدا ، وهو من طينة مختلفة ، كما قالوا!

ولكن رأي قادة القوّات كان مخالفًا ؛ نظرًا لكون الفرس لم يعودوا ينطوون على أيّ خطر ، على تدمر ، في المدى المنظور ، ولانكفاء قوّاتهم ؛ بسبب مشاكل وراثة الحكم .

وفي شأن مصر ، كان رأي عدد من أعضاء مجلس الشيوخ

الاحتفاظ بها ، والامتناع عن تركها للرومان ؛ لأن خطوط التجارة التي فتحها تجّار تدمر ، مع مصر ، بدأت تؤتي أُكُلها . في حين كان رأي القائد ، زبداي ، عدم الاحتفاظ بقوّات في مصر ، بل ، إرسالها بدلًا عن ذلك إلى الشمال ، حيث ستدور المعركة الكبرى التي ستحدّد كلّ شيء ، كما قال .

وكان حديث القائد ، زباي ، منصبًا على خطّة الدفاع عن تدمر ، إن وقع أسوأ الاحتمالات ، بما في ذلك تدعيم السور بعدد إضافيّ من الأبراج الدفاعيّة ، وشحن المدينة بالمياه والطعام الكافي لفترات طويلة .

أما سعداللات ؛ فقدّم شرحًا وافيًا حول قوّات القبائل ، وتركيبتها العسكريّة ، ومراكز القوى التي تتحكّم فيها ؛ كونه كان المكلّف بأمرها ، من قبل أذينة . وكان رأيه أن نتيجة المعركة النهائيّة ، سيحدّدها وقوف هذه القوّات مع أحد الطرفين ، ولذلك كان رأيه أن الأسلم إبقاؤها على الحياد ، إن لم نتمكن من كسبها لصالح تدمر!

ثمّة حديث تداوله بعض الشيوخ ، ولكن لم يشأ أحد الخوض فيه ، أو تحميله أكثر ممّا يحتمل ، مفاده أن الملكة ، وفي حديثها عن الخيارات ، طرحت فكرة إمكانيّة قبولها الزواج من جذيمة ، إن كان ذلك سينقذ تدمر! ولكن الفكرة جوبهت برفض جميع الحاضرين ، وغضبهم ، وخصوصًا القائدَين ، زبداي وزباي ؛ لأن الوضع ، برأيهم ، لم يكن بذلك السوء الذي

تضطر فيه ملكة تدمر للزواج بقاطع طريق!

ولم تمضِ أيّام قلائل ، حتى أتت الأخبار من مصر ، باستعادة الرومان زمام المبادرة ، في الإسكندريّة ، وحصول الوالي الرومانيّ ، بروبوس ، على دعم جديد من أورليانوس عن طريق البحر .

وكنت ، حين وصل البريد من الإسكندريّة ، أقيم الذبيحة في القصر ، بعد صلاة الصباح ، فقالت لي الملكة :

- *الخيارات جميعها صعبة ، وفي كلٍّ منها خسارة ما!*

قلت لها :

- ولماذا لا ترين قصيًا ؛ فلربما رأى ما لا نراه .

راقتها الفكرة ؛ فطلبت منّي مرافقتها إلى غار الجبل ، ومن فورنا ، خرجنا متخفِّيَّين عن العيون ، وسرنا ، راكبين جملين باتجاه الجبل ، وفي الطريق شكت لي حيْرتها ، وعدم قدرتها على اتخاذ أيّ قرار بشأن الحرب ، فقلت لها :

- أيتها الملكة ، اعتاد الملوك أن يستفتوا الآلهة ، قبل خوض المعارك والحروب ، فلم أنت متردّدة كلَّ هذا التردُّد؟!

قالت :

- شيء ما يشبه الغصّة يخنق صدري ، ويمنع الطمأنينة من زيارتي ، برغم محاولات القادة تهوين الأمور .

وحين وصلنا إلى الغار ، كانت الشمس على وشك الغروب ، وريح منعشة تهبّ من جهة الشمال ، وكم كانت

دهشتنا كبيرة ، حين رأينا قصيًا واقفًا أمام المدخل ، وكأنه كان ينتظرنا! فبادَرَنا ، قبل أن نرفع اللثام عن وجهينا :

- عودي ، أيتها الملكة ، إلى قصرك ، وارفعي الأستار عن قلبك ، واستفتيه ؛ فأنت أدرى ما بنفسك ، وحين تخلدين ، هذه الليلة ، إلى النوم سترين في منامك ما يخرجك من دائرة حيرتك ، فاعزمي على ما يريحك ، وسيري فيه إلى النهاية ، فإن أسوأ الأمور تلك التي لا تكتمل .

قالت الملكة :

- وجذية؟!

قال :

- أخذ ذهب تدمر ، وسيأخذ ذهب روما!

نظرت إلى الملكة ؛ فوجدتها مصعوقة مثلي ؛ فقفلنا عائدَين من فورنا . وكان القرار الذي اتّخذته الملكة ، بعد عودتها من غار الجبل ، بعد أن استخارت قلبها ، هو سحب القوّات من مصر والإسكندريّة ، والتوجّه إلى الشمال ؛ لقطع الطريق على هجوم متوقّع ، من جهة بيثينيا .

وقد حاول لونجينوس ، جاهدًا ، ثنيها عن ترك الإسكندريّة ، ولكن القرار كان قد اتُّخذ ، ومضى زبداي ؛ لاستعادة القوّات المرابطة ، هناك ، وسحبها باتجاه بيثينيا ؛ للاستيلاء عليها ، قبل أن يصل أورليانوس .

الرؤيا

رأيت ، أنا حنبل بن جرم اللات الزبيديّ التدمريّ ، فيما يرى النائم ، أن الكون أظلم ، على حين غرّة ؛ بعد أن كانت الشمس في كبد السماء ، فظهرت النجوم بأقصى وميضها ، كأنها في ليلة صيفيّة صافية . ثم سقطت النيازك على المدينة ، كأنها كرات اللهب ، فسقط نيزك كبير على المعبد ، وآخر على المدرّج ، وثالث على القصر ، ورابع على الأغورا ، وخامس على حيّ بني متبول ، وسادس على حيّ بني معزين ، وسابع على قبر أذينة بن خيران ، فنهض أذينة شاهرًا سيفه ، وامتطى حصانه ، وصعد به نحو السماء ، مخترقًا طوفان النيازك والشهب ، حتى غاب عن عينيّ ، فنظرت حولي ؛ فما وجدت سوى اليباب ، ورجال تدمر ونسائها وأطفالها يسيرون بين الرُّكام ، في خطّ طويل ، حفاة يرتدون الأسمال ، دون أن تلمس أقدامهم الأرض . لا ملامح لوجوههم ، وعيونهم لا تنظر إلى شيء ، وآذانهم لا تسمع شيئًا ، كأنهم يسيرون في نومهم . وفي البعيد لاح لي خيال رجل طويل ، ركضت نحوه ؛ فكان يبتعد كلما اقتربت . وحين يئست من الوصول إليه ، جلست على

الأرض ، فعاد إليّ ، كان/ كُنتُ أنا عجوزاً بلحية بيضاء!

وحين نهضت من نومي ، استطعت ، بالكاد ، أن أرى آخر سَريَّة من سرايا الفرسان تغادر تدمر ، من باب أنطاكيا ، باتجاه الشمال الغربيّ . وحين سألت عن الملكة ، علمت أنها ركبت عربتها الحربيّة ، وتقدّمت القوّات الذاهبة إلى بيثينيا ؛ فبكيت ، وشعرت بغصّة مزّقتْ صدري ، لم أختبرها ، من قبل ، ومضيت إلى تمثال اللات ، فجثوت على ركبتيَّ ، أمامه ، وضممت يديَّ متصالبتين إلى صدري ، وأنا أبكي :

- *أيتها اللات ساعدينا . . كوني معنا .*

وفيما كنت غارقا بحزني ، شعرت بظلٍّ طويل يقف خلفي ، فالتفتُّ إليه ، كان قصيّ ، وقد حضر من غار الجبل . نهضت من فوري ، وأنا أداري دموعي ؛ فمسح على رأسي ، ومضى إلى غرفته المظلمة ، فتبعته ، وكان قد أوقد سراج الزيت ؛ فعمّ النور المكان ، كما لم يحدث في مرّة سابقة ، ولم أتبيّن ، حقًا ، أن ذلك النور منبعث من السراج ، أم من قصيّ؟!

وقفت أحدّق إليه ، دون أن أقول شيئًا ؛ فنظر في عينيَّ ، مليًا ، وهو يقول :

- *مبارك حنبل ، فقد كُشف الغطاء عنه!*

قلت :

- *هل قُضي الأمر ، أيها المبجّل؟*

قال :

– لا منجى .

قلت :

– *ولم كان ما كان؟*

قال :

– *لم يكن إلا ما كان .*

قلت :

– *والآن؟*

قال :

– *أمّا أنا فسأمضي إلى أرض ، لا تصلها خيول الرومان ، ولا تطالها سيوف الفرس ، وهناك سأبني مدينتي الفاضلة ، ولن يُسفَك فيها دم ، حتى لو كان دم ذبابة ، أو بعوضة ، وسأربط أهل مدينتي برباط الفضيلة ، وسأدرّعهم بالعدل ، وسأَنذُرُهم للسلام ، وحتى بعد مماتي ، إن ضلَّ أحد من أهل مدينتي ، فسيخرج منهم حرّاسٌ للفضيلة ، يعيدون الضالّين إلى الطريق القويم!*

وحين أنهى جملته الأخيرة ، أطفأ سراج الزيت ؛ فعمّ الظلام ، ومضى خارجًا من المعبد ، متوجّها ، بسيره البطيء ، نحو غار الجبل .

وقفت خارج البوّابة ، أتأمّله ، وهو يسير في طريقه ، بثوبه الأبيض القصير ، وقبّعة اللبد البيضاء ، فبدا لي ، وكأنه يطير ، ولا يسير! وحين ابتعد ، قليلًا ، لم أعد أتميّزه في السراب ،

فعدوت نحوه ، ولم أبلغه! وحين يئست من اللحاق به ، ظهر لي طائر الشِّقِرَّاق ، فحام حولي بجناحين أرجوانيّين ، يومضان كوميض نجم في ليلة حالكة السواد . وبعد قليل اقترب منّي ؛ فمددت له يدي ؛ فوقف عليها . تفرّسني ، مليًا ، وهو يحرّك رأسه حركات سريعة ، مع كلّ نقلة لنظراته . تأمّلت بياض رأسه ، ورقبته ، وصدره ، وجناحيه الأرجوانيّين اللذين يشبهان عباءة الأفكل ، وحين التقت عيوننا لمحت نظرة أعرفها جيّدًا ، ولكنني لا أذكر أين ، ومتى رأيتها!

وفجأة ، غادر الطائر يدي ، متوجّهًا نحو غار الجبل ؛ فتبعته ، وظللت أتبعه ، حتى وصلنا ، فاتّخذ له مكانًا على غصن سدرة ، قرب باب الغار ، أراها للمرّة الأولى! دخلت ، وأنا ألهث ؛ من شدّة التعب ، وكان قصيّ جالسًا على حجر ، أمام اللات ، غارقًا في ملكوتها ، وحين وقفت ؛ استدار نحوي باسمًا ، وهو يقدّم لي كوب ماء مثلّج ، وهو يقول :

- *تلك هي أعجوبتي!*

شربت الماء البارد ؛ حتى ارتويت ، فأخذ الكأس من يدي ، وعاد إلى ما كان فيه من صمت ، وتأمّل عميقين .

انتظرت أن يكلّمني ، مجدَّدًا ، فلم يفعل . حاولت أن أسأله عن أيّ أعجوبة يتحدّث؟ عن مدينته الفاضلة؟ أم عن طائر الشِّقِرَّاق؟ أم عن الماء المثلّج؟ فلم تخرج الكلمات من فمي . حاولت أن أتقدّم نحوه أكثر ، فتيّبست قدماي . تراجعت

إلى الوراء ، فتحرّكتا ، وحين خرجت من الغار لم أرَ الطائر ، ولا الشجرة ، بحثت عنه في أرجاء المكان ، ولم أجده ، فعدت إلى المدينة ، أسير الهوينى ، وحيدًا بلا طائرٍ . وحين وصلت كان الليل قد هبط ، واشتعلت السماء بالنجوم والمجرّات ، والشهب البعيدة .

هامش يوحنّا بن تيموس البلمريني [٣٩٠م]

بعون الربّ الواحد فرغت ، أنا الفقير إلى الله ، يوحنّا بن تيموس البلمريني ، من نسخ هذا الكتاب في معتكفي بكنيسة السيّدة العذراء ، يوم الخامس من شهر أيلول ، من السنة الحادية عشرة ، للإمبراطور ، البار ثيودوسيوس الكبير ، وهو كتاب وضعه جدّي لوالدي ، أنيبالوس بن غيراموس ، (حنبل بن جرم اللات) ، حين استقرّت به الأيّام في روما ، بعد خراب مدينته باميرا ، أو تدمور ، أيْ الأعجوبة بلغة أسلافي ، كان والدي قد أعارني إيّاه ، وطلب منّي أن أنسخه ، إن كنت مهتمًا باقتناء نسخة منه ، ولم تسنح لي فرصة لنسخه ، إلاّ الآن ، بعد أن قرّرت الاعتكاف في هذه الكنيسة ، إذ ينبغي أن أعيده لوالدي الشيخ الكبير الذي بات إلحاحه عليّ كبيرًا ؛ لإعادة النسخة الأصليّة الوحيدة التي يحتفظ بها من هذا الكتاب النادر ، وهي بخطّ والده .

وكنت قد اقتبلت العماد بيد البار ، زنوبيوس بن تيموالاوس ، أسقف فلورنسا ، وحفيد ملكة تدمر زنوبيا الذي كان أوّل من اكتشف بطلان عبادة الأصنام ، من شعبنا الجريح

المنكوب ، وفتح قلبه وعقله للمبشّرين بالإنجيل ؛ فنال غضب ذويه ، حين اقتبل العماد بيد أسقف فلورنسا ، القدّيس ثيودورو ، ولكنه أجابهم بالوداعة ، وثبات القلب ، وتمكّن من كسبهم للمسيح . وكان قد سيم شمّاسًا ، وكرّز بالكلمة الإلهيّة ، ووصل خبره إلى أذنيْ القدّيسَين ، أمبروسيوس ، ودماسيوس ؛ فاستُدعي إلى روما ، ومنها أُوفد إلى القسطنطينيّة رسولًا بابويًا ، في شأن المسألة الآريوسيّة . وإثر وفاة القدّيس ، ثيودورو ، عاد إلى فلورنسا ، واختير أسقفًا لها . وكان على تواضع ونسك ومحبّة ووداعة كبيرة ، وجرت على يديه الأعاجيب ، وقد اهتديت إلى المسيح ؛ بنعمة الله ، وبفضل كرّازته ، بعد أن تنقّلتُ بين فرق ضالّة مضلّة ، بعضها يزعم وجود إلهين متنافسين ، أحدهما للخير ، وآخر للشرّ ، والبعض الآخر يتخيّل ، واهمًا ؛ عوالم منفصلة بعضها عن بعضها الآخر ، ومراحل من المسوخيّة ، وتناسخ الأرواح ، يقطعها الإنسان ؛ ليصل إلى ربّه!

وحين اهتديت إلى المسيح ، وطرحت عنّي هذه الضلالات ، سامُوني شمّاساً ؛ فانخرطت في السلك الكهنوتيّ ، وانتقلت إلى أبرشيّة ميلانو ، ولكنني ، وبعد أن رأيت ما رأيت من خطايا مَن يدَّعون الانتماء للمسيح ، وآثامهم ، وارتكاباتهم ، وضلالاتهم ، عزمت على ترك حياة الأكليروس ، وما فيها من فساد عميم ، ودسائس ، ومؤامرات ،

وأحقاد ، وضغائن ، جَعَلَتْ من كرَّازة المسيح الخالدة أمرًا ثانويًا ، مقابل الطمع في المناصب ، والامتيازات ، والرُّتَب الكهنوتيّة .

وكان لقراءتي كتاب جدّي هذا ؛ أكبر الأثر في قراري انتهاج طريق الزهد والفقر والتأمّل ، سائحًا في الأرض ، تمامًا ، كما كان المسيح ، زاهدًا فقيرًا سائحًا في الأرض ، مستغرقًا في كرَّازته ، حتى توحّد في الواحد ؛ فالوصول إلى معرفة الواحد لا يكون إلاّ بالتوحّد فيه ، كما قال المعلّمون الأطهار الأتقياء!

هامش منصور بن بكرو الحرّانيّ [عام ٤٧٦ م]

بعون الله ، نقلت هذا الكتاب من اليونانيّة إلى السريانيّة ، أنا الراهب المعيد ، منصور بن بكرو الحرّانيّ ، المعتكف في جبل الرُّها ، مع أخوتي الصالحين : مار فولا ، ومار نرساي ، ومار إيوانيس ، ومار قوزما ، في السنة الثانية ، للإمبراطور ، البار زينون ، وهو تذكار من الراهب مثلّث الرحمات ، مار يوحنّا بن تيموس البلمرينيّ ، مؤسّس هذه الرهبانيّة ، فقد نُقل عنه أن الطريق إلى الله واحد . وكان ، عليه أقدس الرَّحَمات ، قد أوصى ، قبيل انتقاله إلى الخدور العلى ، بنقل هذا الكتاب إلى السريانيّة ؛ لغاية في نفسه ، لا يعلمها أحد سواه! ولم يتوفّر ، طوال المئة عام الماضية ، مَنْ تجرّأ ، من الإخوة الرُّهبان ، في هذا الدير ، على هذا الأمر ، حيث كان الإخوة يتهرّبون من ذلك ؛ بسبب ما يرونه تجديفًا ، وعقائد باطلة ، تنطق بها صفحات الكتاب! ولكنني أدّيت المهمّة ، أخيرًا ، وأنهيت نقله إلى السريانيّة ، واحتفظت بهذه النسخة في خزانة خاصّة ، محكمة الإغلاق ؛ لكي لا يراها سوى الراسخين في العرفان ، بحسب وصيّة صاحب الكتاب .

وهنا ، لا بدّ أن أعترف ، بأن نقل الكتاب إلى السريانيّة أوقعني ، بداية ، في حيْرة من أمري ، وكنت أفكر في التوقّف عن إكماله ؛ بسبب ما بدا للإخوة قبلي ، من تجديف ، وتقديس للأوثان ، ولكنني غيّرت رأيي ، حين أكملت القراءة ، حتى النهاية . وأظن أن الراهب النائب ، سيّدنا مار يوحنّا ، أراد أن يوصل بوساطة كتاب جدّه هذا ، رسالة إلى أتباع هذه الرهبانيّة ، بأن الغاية المثلى للترهّب هي الوصول إلى الله ، وأن الأسماء والرموز قد تختلف ، بين عصر وعصر ، وبين لغة ولغة ، وبين شعب وشعب ، ولكن الطريق إلى الله واحد ، وهذا الطريق هو الذي عبَّدهُ لنا سيّدُنا البلمرينيّ ، قبل أن ينتقل إلى الخدور العلى ؛ بصبره ، وجلده على تحمُّل المشقّات ؛ في سبيل الوصول إلى الغاية!

وهأنذا أنقل عن مخطوط ، وجدتُه في محفوظات الدير ، بقلم الراهب المنيب ، مار أدي ، رفيق الراهب النائب ، مار يوحنّا البلمرينيّ ، شيئًا من سيرة هذا القدّيس ، بعد وصوله إلى ولاية الفراتيّة :

«حين وصل سيّدنا ، مار يوحنا إلى الرّها ، قادمًا من بلاد الرومان ، بعد رحلة طويلة قاربت العامين ، تكبّد فيها المشقّات والأهوال ، مكرِّزاً بالبشارة الإلهيّة بين كثير من الشعوب ، والأقوام التي مرّ بها ، وجد أن أتباع المسيح ، في هذه البلاد متفرّقين أشدَّ الفرقة ، مختلفين على أبسط الأمور ؛ فحاول

الإصلاح بينهم ، وإقناعهم بأن التناحر على الرُّتب الكنسيّة ، وعلى حرفيّة النصوص ، حمّالة الأوجه ، مخالفٌ لطريق الرّبّ . ولكنهم لم يستمعوا إليه ، بل نبذوه ، واتّهموه اتّهامات باطلة ، مردّدين ، بغباء ، كلام الأسقف ، أغسطينوس الهيبونيّ ، دون وعي ، أو إعمال للعقل ، زاعمين أن مدينة الله ، في الآخرة ، هي الغاية ، وأن الحياة في هذه الدنيا خطايا مطلقة ، وعلى الإنسان أن ينتظر الحياة الأخرى ؛ ليعيش الفضيلة ، والحقّ ، والعدالة!

وكان سيّدنا ، مار يوحنّا البلمرينيّ ، قد دخل في جدل طويل مع أغسطينوس الهيبونيّ ، حين كانا معًا في ميلانو ، وحاول سيّدنا أن يقنعه ، بأن المدينة الفاضلة ، مدينة الله ، ينبغي أن تقام على الأرض ؛ لأن الغاية من الوجود الأرضيّ هي إقامة المثال ، وليس انتظار الحياة الأخرى التي ، ولا شكّ ، لها منطقها ، وقوانينها التي نجهلها ، الآن ، ولا نستطيع أن نتخيّلها تمام التخيّل!

لقد وجد الكهنوتيّون في آراء الأسقف ، أغسطينوس ، برغم أنه لم يشأ ذلك ، تسويغًا لكلّ ضلالاتهم ، منطلقين من الزعم بأن الشرّ هو الأصل ، في النفس البشريّة الأمّارة بالسوء ، وأن الله لا يعاقب على الخطيئة ، في هذا العالم ؛ لأنه لو فعل ذلك لما بقي شيء ، حتى الدَّيْنونة الأخيرة! وحرّفوا أقوال الأسقف أغسطينوس عن مقاصدها الحقيقيّة ، متناسين أن

أحاديثه ومقارناته التي حفل بها كتابُه : «مدينة الله» كانت للدفاع عن المسيحيّين ، بعد خراب روما ، حين اتّهمهم الآخرون بأنهم سبب تلك البلايا ، فحديثه عن المدينة الدنيويّة الآثمة ، كان يقصد به روما الوثنيّة بالذات ، روما الخطيئة ، والرذيلة ، وليس أيّ مدينة أخرى ، على هذه الأرض!

ومع ذلك ، لم يقنط ، عليه أقدسُ الرّحمات ، وبدأ يكرِّز بالبشارة بين الناس ، في الأسواق والشوارع ، والكنائس ، فلامه رجال الدين المذعورون على امتيازاتهم ، واعتدى عليه بعض الغوغاء ؛ بتحريض منهم ، فصعد إلى جبل الرّها ، حاملًا صليبه ، وتبعه بعض المؤمنين بكرامته ، فأضاء للمتردّدين نور الحقيقة ، وأظهر لهم أن الطريق إلى الواحد ؛ لا يكون إلا بفسخ العقد مع المجموع الآثم!

وفي هذا الجبل المبارك ، أقام مدينته الفاضلة التي كان يبشّر بها ، مدينة الله المترفّعه عن أوساخ الدنيا ، يعيش فيها الإخوة والأخوات ، في نعيم الربّ ، يتقاسمون العمل ، والخدمة فيما بينهم ، ويُمضون حياتهم في التأمّل والتفكّر ، طارحين عن كواهلهم مطامع الدنيا ، ومناصبها الزائلة ، طامحين إلى بلوغ المراتب العلى ، في طريق الحقيقة المطلقة ، وهي المراتب الخمس التي حدّدها لنا سيّدنا ، يوحنّا البلمرينيّ ، وهأنذا أعدّدها ؛ ليطّلع عليها الراسخون في العرفان :

المرتبة الأولى : ويسمّى صاحبها المُريد ، وفيها يكتفي

الراهب بتنفيذ ما يُملى عليه .

المرتبة الثانية : ويسمّى صاحبها ، المُجيب ، وفيها يستمع الراهب ، ويجيب على قدر ما يُملى عليه .

المرتبة الثالثة : ويسمّى صاحبها ، المُعيد ، وفيها يعيد الراهب على مَن هم أدنى منه ما يُملى عليه .

المرتبة الرابعة : ويسمّى صاحبها المُنيب ، وهي أعلى مراتب الترهّب ، وفيها يُملي الراهب ولا يُملَى عليه .

المرتبة الخامسة : ويسمّى صاحبها النائب ، ولا يبلغها إلاّ راهب واحد ، يتلقّى تعاليمها السِّرانيَّة من النائب الذي يسبقه ، قبل موته!

وحين يبلغ الراهب هذه المرتبة ، يزول الحجاب القائم بينه ، وبين الواحد ، ويتلقّى العرفان من الخدور العلى ، من دون وسيط ، وحينها ، تتوحّد عنده الأسماء والرموز كلّها في الواحد» .

هامش المترجم الأخير!

لطالما استوقفتني تلك الإشارات القويَّة الغامضة ، في النقوش النَّبَطيَّة ، والتي تقول أشياء كثيرة عن ديانة العرب القدماء ، من دون أن تفصح ، أو تسمِّي الأشياء ، من دون أن تشرح .

ثمَّة رابط قويّ ، كنت أشعر به ، ولم أتمكّن من الإمساك به ، مرَّة واحدة ، يجمع في بوتقته كثيرًا من العقائد التي تبدو ، الآن ، متناقضة ، بل ، في أحيان كثيرة ، متناحرة .

كانت الأسئلة تشتعل في رأسي ، وأنا أُحصي الكمّ الكبير من النقوش النبطيَّة التي كتبها أشخاص تسمَّوْا باسم مسلم وإسلام ، قبل الدعوة المحمديَّة ، بسبعة قرون ، وثمّة نقوش أخرى ، يصف فيها أصحابُها أنفسَهم بـ«نبطو سلامو» ، أيْ الأنباط السلاميّون ، أو إن شئنا الدقَّة أكثر ، الإسلاميّون ؛ نظراً ؛ لكون الكتابة النبطيّة تُضيع حرف الألف ، في كثير من الحالات . والأكثر غرابة ، فيما يتعلَّق بي ؛ تسمية المعبد النبطيّ الذي يرد في النقوش التكريسيَّة باسم «مسجدا» ، أيْ المسجد ؛ فالأنباط إذن ، كانوا يسجدون في صلاتهم للإله!

وما زاد في استغرابي ، أن أيًا من الباحثين لم يحاول أن يجد الروابط بين الأنباط السلاميّين ، وبين مسلمي القرن السابع الميلادي ، على الرغم ، أيضًا ، من أن النبيّ ، محمد بن عبد الله ، تحدَّث عن قِدَم دين الإسلام ، وأنه سابق لدعوته ؛ بل ، أرجعه إلى النبيّ ، إبراهيم الذي يصف نفسه ، في القرآن ، بأنه أوَّل المسلمين .

وقد دفعتني أحاديث منسوبة لعليّ بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، تقول : إن أصل قبيلة قريش من الأنباط ، للتنقيب ، والبحث ، في سلاسل النَّسَب المتعلِّقة بهذه القبيلة ؛ فكانت النتائج مضطربة ، متناقضة ، في بعض الأحيان ، مبهمة ، في أحيان أخرى ، تعطي ؛ لسبب غير مفهوم ، اسمًا مختلفًا لكلّ شخص ، غير اسمه الحقيقي ، فاسم جدّ الرسول عبد المطلب : شيبة بن هاشم ، بحسب سيرة ابن هشام ، واسم والد جدّه هاشم : عمرو بن عبد مناف ، واسم عبد مناف : المغيرة بن قصيّ ، واسم قصيّ : زيد بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خزيمة بن مُدرِكة . . . إلى آخر سلسلة النسب التي تصله بنابت ، جدّ الأنباط ، وهو ابن إسماعيل بن إبراهيم . . . وصولًا إلى آدم أبي البشريَّة .

والغريب أن رواة العصر العباسيّ ، وإخباريه ، ورغبة منهم في الحطِّ من شأن الشام ، راحوا ينسبون كلَّ فضيلة إلى

العـراق ، ومنهـا نسبُ الرسـول نفسـه ، ومن أجل هذا طوَّعـوا مصطلح النَّبط ؛ لكي يشمل آراميّي العراق ؛ علما بأنه ، يخصُّ شعبًا من الشعوب العربيَّة القديمة ، ذات الأصل الآراميّ ، كان يسكن في المنطقة الممتدّة من دمشق إلى يثرب ، وعاصمة ملوكه تتوسَّط المسافة بين المدينتين ، وهي سلع ، أو ، في تسمية أخرى ، البتراء ، كما أثبتت الدراسات المتعلِّقة بالنقوش والآثار!

إذن ، كانت القناعة الراسخة التي توصَّلتُ إليها ، في تلك الآونة ، أن الشخصيَّة المحوريَّة في سلسلة النسب تلك ، هو قصيُّ بن كلاب ؛ المؤسِّس الحقيقيّ لمدينة مكة ، بوصفها مركزًا لديانة العرب القدماء التي كانت تتداعى ، وتتراجع ، أمام هجمات المسيحيَّة ، بمذاهبها المختلفة : أريوسيَّة ، ونسطوريَّة ، ويعقوبيَّة . وسبب ذلك التراجع- كما تبيَّن لي- كان افتقارها إلى لاهوت ينافس ، ويحاجج لاهوت المسيحيّين ، أو اليهود!

لا شكّ في أن رحلة قصيّ بن كلاب الطويلة إلى مكة ، ستبقى لغزًا من ألغاز التاريخ ، على الرغم من محاولات كتّاب السيرة النبويّة اختزالها بمجموعة من الحكايات الساذجة المبتورة التي تزيد الصورة غموضًا وتشويشًا .

فمثلاً ، قيل : إن قصيًا وُلِد في مكة ، ولكن والدته ، وكانت من بني عُذْرة ، أخذته إلى أخواله في الشام ، حيث نشأ هناك ، وعاد شابًا إلى مسقط رأسه!

إذن ، كتَّاب السيرة يقرُّون بأن قصيًا أتى إلى مكة من

الشام ، وأن بني عذرة كانوا يسكنون في الشام ، برغم أن النَّسابين ، في العصور اللاحقة ، يجعلون مواطنهم في وادي القُرى ، قرب المدينة المنوَّرة!

ولذلك ، أيقنتُ أن كتب السيرة ، وأنساب العرب ، والتواريخ الحوليَّة العبّاسيَّة ، لا يمكن أن تقدِّم إجابة على لغز قصيّ بن كلاب ؛ فكان لا بدَّ لي من البحث في المصادر الأخرى ، وأيُّ مصدر خير من النقوش النبطيّة؟!

كانت رحلتي الاستكشافيَّة الأولى إلى مدينة البتراء ، جنوبيّ المملكة الأردنيَّة الهاشميَّة . لا شكَّ في أنها مدينة عظيمة ، يعجز اللسان عن وصف فخامتها ، وغرابتها ، ولا يملك إلا أن يقف صامتًا ، وهو يتأمَّل المستحيل متحقِّقًا أمام عينيه ، ولكن ؛ لا أدري لمَ انتابني إحساس عميق بأنها مدينة تجاريَّة ، وسياسيَّة ، أكثر منها حاضرة سُكانيَّة تتجمَّع حولها الضياع ، والأرباض ، كما هو حال عواصم الممالك القديمة التي تواصَل فيها الاستيطان البشريّ ، برغم تعاقب الحضارات ، والأزمنة . ثم إنني لم أعثر في نقوشها ، القليلة نسبيًا ، على شيء يذكر ، ممَّا يمكن أن يفيد بحثي ، ولا أدري لماذا؟!

توجَّهت ، بعد ذلك ، إلى بُصرى ، عاصمة آخر ملوك الأنباط ؛ ففوجئت بكمّ القرى والحواضر السكانيَّة النبطيَّة المحيطة بها ، في جبل حوران وسهله ، قرى وبلدات ، ومدن ، ومزارع ، ومعابد ، ونقوش كثيرة . إنها بلاد عامرة بالخير

والجمال ، فلِمَ لا تكون هي موطن الأنباط الأصليّ ، ومنبعهم ؛ إذن؟

لقد خمّن علماء الآثار أن بلاد الأنباط ، أثناء العصر الآشوريّ ، كانت تقع إلى الجنوب من بلاد قيدار ، مفترضين أن القيداريّين كانوا يسكنون شمالي الجزيرة العربيّة ، ولكن هناك من يقول إن قيدار كانت تسكن في شمالي حوران ، وجنوبي دمشق ؛ بناء على جغرافية النقوش التي تحدَّثت عن معارك لملوك القيداريّين ، مع ملوك آشور ، في يبرود ، وجبل حوران ، وجبل لبنان ، ووفقًا لهذه التقديرات التي أؤيّدها بشدّة ، فإن بلاد الأنباط في ذلك الوقت ، تبدأ من جبل حوران ، وإلى الجنوب .

أقمت في فندق بصرى الشام ، أيّامًا عدّة ، والتقيت فيه ببعثة تنقيب فرنسيّة ، معظمهم من تلاميذ جان ماري دانتزر ، البروفيسور الذي كرَّس حياته ؛ لدراسة آثار حوران . ومن حسن حظّي أنهم كانوا يحملون معهم نسخًا من كتبه ؛ ساعدتني في تحديد المواقع النبطيَّة في السهل والجبل ، وقد نصحني أحد أفراد البعثة نصيحة صادقة ، بأن أركِّز بحثي في المنطقة المحصورة بين صلخد وبصرى ؛ ففيها كثير من الأسرار التي لم تكتشَّف ، بعد!

كانت ، حقًا ، نصيحة من ذهب ، فقد اختزلت ؛ بسببها ، كثيرًا من الوقت والجهد والبحث ، وكانت النتيجة أكثر مِن مبهرة .

لقد كان تأثُّري شديدًا ، إلى درجة البكاء ، وأنا أقرأ اسم قصيّ بن كلاب ، أفكل اللات ، في أحد نقوش معبد مدينة صلخد ، وفي نقش آخر بقرية حبران القريبة منها ، وفي نقش ثالث ، بقرية بكّة القريبة من الاثنتين ، والمجاورة لمدينة بصرى ، ولكن في تواريخ مختلفة! وهذا قد يعني أن قصيّ بن كلاب الثالث ، ربما هو حفيد لقصيّ بن كلاب الثاني ، وهذا الثاني ربما حفيد لقصيّ بن كلاب الأوَّل ، وهم جميعًا عاشوا في القرن الثاني الميلاديّ ؛ قرن نهاية مملكة الأنباط ، وهزيمة آخر ملوكهم ، رئبال الثاني ، في معركة موتانا ، على يد الرومان ، في العام ١٠٦ للميلاد .

لقد كانت مهمَّتي محفوفة بالمخاطر ؛ فلصوص الآثار ، والباحثون عن الكنوز ، كانوا ينتشرون كأسراب اليراعات ، مع غروب الشمس ، وكنت ترى أضواء قناديلهم تنبعث من أيّ خربة أثريَّة ، حين يجنّ الليل . هؤلاء كانوا يراقبون تحرُّكاتي نهارًا ؛ لكي يسطوا ، ليلًا ، على المنطقة التي أنقِّب فيها ؛ ظنًا منهم أنني خبير بمواقع الكنوز الدفينة . أمَّا رجال المخابرات فلم يكونوا يعترفون بالأوراق ، وبرسائل التوصية التي كنت أحملها من مديريَّة الآثار والمتاحف ، أو من جامعة دمشق ، وغيرها ؛ إذ اقتادوني ، غير مرَّة ، للتحقيق ، مقيَّدًا ، أمام أهالي القرى ، كأيّ لصّ هارب ، أو مُتلبّس!

عند هذا الحدّ توقَّف بحثي الميدانيّ ، في النقوش النبطيّة ،

وكانت استنتاجاتي ، في هذه المرحلة ، قد تركّزت حول فكرة أساسيَّة ، وهي : أنه لا بدَّ من وجود علاقة وثيقة ، بين قصيّ بن كلاب ، مؤسِّس مكة ، في التراث الإخباريّ العربيّ الإسلاميّ ، وقصيّ بن كلاب ، أفكل اللات ، في النقوش النبطيَّة .

كان لافتاً لي تكرار أسماء قصيّ ، وكلاب ، ومالك ، وروح ، وأذينة ، في أسماء العائلة التي اختصَّت بإقامة معابد اللات في جبل حوران ؛ فهي عائلة دينيّة ، إذن ، وأفرادها يتوارثون أسماءهم ، كما يتوارثون ألقابهم الدينيّة ، ويغلب على المنطقة – كما تشير النقوش– بنو السميذع ، وهناك اسم (بنو عذرة) ، أخوال قصيّ ، بحسب السيرة النبويَّة ، وخصوصًا في نقوش جبل المشنف ، مزدوجة اللغة . وهنا ازدادت الصورة غموضًا ، أمامي ؛ فالنَّسابون العرب ينسبون الزَّبَّاء ، ملكة تدمر ، إلى بني السميذع ، وابن إسحق ، المولود في العام الخامس والثمانين للهجرة ، وأوَّل مؤرخّي الإسلام ، تحدَّث عن أن سكان مكة الأوائل كانوا بني السميذع ؛ فما الذي يجمع جبل حوران بمكة وتدمر؟! ولماذا يربط ابن إسحاق ، وغيره ، من مؤرخّي العرب المسلمين ، بين هذه الأماكن برابط قَبَليّ مبهم ، وغامض ، ومضطرب؟!

وأيضاً ، ماهو الأفكل؟ ولماذا يوصف قصيّ بن كلاب ، في النقوش ، بأنه أفكل اللات؟!

خبراء النقوش يقولون : إن الأفكل هو الكاهن الأكبر . أما المعاجم العربيّة فتذكر أن الأفكل على وزن أَفعَل يعني : الرِّعْدة ، ولا يُبنى منه فِعْل ، ومنه حديث عائشة : فأَخذني أَفْكل ، وارتعدت من شدَّة الغَيرة .

ولكن ، أليست الرَّجْفة ، والرِّعدة ، والغياب عن الوعي ، حالة ملازمة للمتنبِّئين الذين يتلقَّوْن الوحي ، كما تذكر بعض المصادر العربيّة القديمة؟!

وأيضاً ، لماذا يسمِّي العرب ، في معاجمهم ، طائر الشِّقِرَّاق بالأفكل؟ ولماذا يعدُّونه نذير شؤم؟ سؤال لم أجد له جوابًا ، في أيِّ مرجع عربيّ ، من المراجع التي درستها!

هذا الاضطراب الكبير في نصوص التراث العربيّ ، المتعلِّقة بتواريخ ، وعقائد عرب ، ما قبل البعثة النبويّة ، أدخلني في دائرة الإحباط واليأس ، بعد أن وصلت إلى طريق مسدود ، فأوقفت بحثي في النصوص اللغويّة العربيّة ، وكذلك ، في كتب الحديث والسنَّة النبويّة ، وكُتب الإخباريِّين ؛ فالرابط بين كلِّ ذلك لا يزال غامضًا ، ولا يمكن الاعتداد به ، عند بناء رواية جامعة مُحكَمة ، تربط نقوش الأنباط بنصوص التراث العربيّ .

وكنت أحسب أن خطَّتي لنيل شهادة الدكتوراه ، من جامعة فريبورغ السويسريّة ، حول ديانة العرب قبل الإسلام ، قد وصلت ، هي الأخرى ، إلى طريق مسدود ، فعدت إلى

الجامعة ؛ لتغيير الأطروحة ، ولكن البروفيسور المشرف فاجأني بأنه متحمّس لها ، ونصحني بأن أبحث في المصادر غير العربيَّة ؛ علَّني أصل إلى غايتي ، وعدَّد لي بعض المصادر التاريخيَّة اليونانيَّة ، واللاتينيَّة ، والتي من شأنها أن تساعدني على الوصول إلى نتيجة مُرضية ، منها : تواريخ بليني ، وسترابون ، وديودور الصِّقلِّي ، وتواريخ الكنيسة ، ليوسابيوس القيصريّ ، وجيروم ، وكتاب الهرطقات لإبيفانوس ، وسير القدِّيسين ، وغيرها من الكتب المسيحيَّة التي كانت تَرُدُّ على عقائد الوثنيِّين ، كما نصحني بالتنقيب في كتب السُّرْيان ؛ علّها تفيدني .

راقت لي الفكرة كثيرًا ، وبدأت عمليَّة البحث ، فكانت سهلة للغاية ، فيما يتعلّق بالمراجع اليونانيَّة . أمّا المعضلة الكبرى ؛ فكانت في المراجع السريانيَّة التي كنت مؤمنًا بأنها تضمّ ، في صفحاتها المنسيَّة والمهملة ، كثيرًا من الكنوز ؛ ولكن مشكلتها أن المدروس والمفهرس منها قليل جداً ، وغالبه موجود في المتحف البريطانيّ . إذن ، لا يزال كثير من هذه المخطوطات في مكتبات الأديرة والكنائس السريانيّة ، وفي المكتبات الخاصَّة المنتشرة على مساحة سوريا والعراق . ولذلك ، كان لا بدّ أن أعتمد على جهودي الفرديَّة ، فبدأت مسيرة بحث مضنية عن كتب السريان ، وخصوصًا ، تلك التي تعود إلى الفترة السابقة للإسلام .

زرت دير مار أفرام الكبير ، في معرّة صيدنايا ، شماليّ دمشق ، غير مرّة ، واطّلعت على أسماء وعناوين المخطوطات التي يحتفظ بها الدير . كان أهمّها لي سير القدّيسين ليوحنّا الآسيويّ ، ولكنه يحتاج إلى بحث معمَّق . وقد حدَّثني أحد الآباء المشرفين على المكتبة أن الكثير الكثير من مخطوطات السريان ضاع ، أثناء محنتهم الكبرى ، في العام ١٩١٥ ، والتي أطلقوا عليها اسم سيفو ، أيْ المذبحة أو الكارثة ؛ إذ تسبّب هذا الحدث الجلل بتهجيرهم ، وحرق مدنهم ، وبعثرة تراثهم . وقد نصحني هذا الأب اللطيف بالبحث في المكتبات الخاصّة ؛ ففيها كثير من مخطوطات السريان التي لم تدرس ، ولم تصنَّف ، أو تفهرس ، كما قال لي ، بل ، زوَّدني بعنوان أحد المهتمّين بهذا الأمر ، من شباب السريان النابهين .

اتصلت بالشاب ، وكان يدعى فادي برصوم ، مقيم في حيّ باب شرقي ، في العاصمة دمشق ، وأصله من مدينة الرُّها الشهيرة ، والتي تسمّى اليوم أورفة ، وتقع جنوبيّ تركيا .

استقبلني فادي بترحاب ، وودٍّ كبيرين ، وسمح لي ، بعد أن شرحت له قصّتي ، بأن ألج إلى مستودع أسراره ، كما قال ، وهو يفتح باب غرفة داخليّة . وحين دخلت لم أصدِّق ما رأيت ، لقد كانت مكتبة شخصيّة ، لم أرَ مثيلةً لها ، من قبل ، من حيث عدد المخطوطات ، والكتب القديمة ، والفهرسة ، والترتيب .

وحين جلسنا نحتسي الشاي ، بعد جولة طويلة على الرفوف ، أحضر كتابًا ، وقال لي ، وعلى محيّاه ابتسامة ودودة : اقرأ ؛ لعلّه يفي بالغرض .

قرأت بالسريانيّة ، التي سبق أن تعلّمتها ، عنوانًا لافتًا ، هو : حياة قصيّ . تصفّحت الكتاب المخطوط ، كان قديما جداً ، وأوراقه مصفرَّة ، وبعضها متهرِّىء . فقال فادي ، بحماسة ، وأنا أقلِّب الصفحات :

– *هذه المخطوطة غريبة ، في كلِّ ما فيها ، وهي من المخطوطات التي أحضرها جدّي معه ، من الرُّها إلى حلب ، وكان حريصًا عليها ، بشكل غريب ، إذ كان يحتفظ بها في خزانة خاصّة .*

قلت :

– *وأين وجه الغرابة فيها؟*

قال :

– *وجه الغرابة أنها تتحدّث عن شخص وثنيّ!*

حين أنهيت قراءة الهوامش ، قلت له :

– *هذه المخطوطة ، كما تبدو لي ، قديمة جدًا ، وربما هي ضالّتي المنشودة!*

هزّ رأسه ، موافقًا .

عرضت عليه شراءها ، فرفض رفضًا قاطعًا ، ولكنه قال لي : إن بإمكانه أن يزوّدني بنسخة إلكترونيّة عالية الدقّة ؛ لأن

غايتي هي العلم ، وليس التجارة ؛ فوافقت دون تردّد .

حملت كنزي إلى بيتي ، وعكفت على وضع دراسة بالفرنسيّة تصف المخطوطة ، بدقّة بالغة ، وضمَّنتها مقدّمة الكاتب والهامشين اللذين ترجمتُهما حرفيًا .

كانت قناعتي ، في هذه المرحلة ، قد ترسخّت بأنني وقعت على كنز ثمين ، لا يقدّر بثمن ، فأسرعت بالطيران إلى فريبورغ ، وعرضت أوراقي على مشرفي ؛ فطلب أن يراجعها ؛ ليتحقّق من بعض الأمور!

بعد أسبوع دعاني إلى مكتبه ، ووجهه متجهّم!

قلت له :

- *هل الأمور بخير دكتور؟*

قال :

- *لا ، ليست بخير! هذه المخطوطة مزوّرة ؛ إذ لم أجد الأصل اليونانيّ الذي تزعم بأنها مترجمة عنه ، ولم أعثر على اسم المؤلِّف بمختلف الصيغ التي يمكن أن يرد فيها .*

قلت :

- *ولكنني رأيت المخطوطة ، وتصفّحتها ، وتفحّصتها ، وإن شئت أحضرها لك في زيارتي المقبلة .*

قال :

- *حتى لو أحضرتها فقيمتها ستبقى منقوصة ؛ لأن الأصل اليونانيّ المزعوم غير موجود . ولكن يمكنني أن أقبلها*

مرجعًا غير أساسيّ ؛ إن أثبتت تحليلات الكربون ١٤ أن عمرها حقيقيّ!

أنجزت تصوير المراجع اليونانيّة ، واللاتينيّة ، خلال إقامتي في سويسرا ، وعدت إلى دمشق ، وكلّي أمل بأن يعطيني فادي المخطوطة ؛ لكي أعرضها على الجامعة ، وأعيدها له ، بعد تحليلها . وحين وصلت ، وكان ذلك في الثلث الثالث من شهر آذار عام ٢٠١١ ، كانت العاصفة قد ضربت دمشق ، فتساقطت الأمطار بغزارة غير معهودة ، وتحوّلت كثير من الشوارع إلى برك ، يستحيل عبورها بالسيّارات . أمّا المناطق الجبليّة ، شماليّ العاصمة ، وغربيّها ، فمصيبتها كانت أعظم ؛ إذ تحوّلت الأمطار فيها إلى سيول ، جرفت كلّ ما صادفته أمامها .

انتظرت يومين ، حتى هدأت العاصفة . اتصلت بفادي ، فلم يردّ . ذهبت إلى بيته ، فلم أجده ، إنما وجدت عمّالًا ، وورشة ترميم . عاودت الاتصال ، غير مرّة ، فأخبرني بأن ظروفًا طرأت اضطرته للانتقال إلى حلب ، وهو الآن في بيروت ، وسيعود خلال يومين ، أو ثلاثة .

بعد أسبوع ، التقينا في أحد مقاهي باب شرقي ، وأخبرني بأن صاحب المنزل الذي التقينا فيه ؛ ربح دعوى إخلاء رفعَها ضدّه ، وحصل على أمر قضائيّ أجبره على مغادرة المنزل الذي سيتحوّل إلى مطعم سياحيّ ، ولذلك اضطر إلى نقل محتويات مكتبته إلى ضاحية قدسيّا ، حيث كان يمتلك قبوًا هناك ؛

فأخبرته بما قاله البروفيسور لي ، وكان ردّه ، كما توقّعت ؛ فقد قال : إنه يثق بي ، ولذلك سوف يعيرني المخطوطة ، على أن أحافظ عليها بقدر ما أستطيع ؛ ريثما أُعيدها له ، في أقرب وقت ممكن .

توجّهنا بسيّارته إلى ضاحية قدسيّا . كانت آثار العاصفة المطريّة لا تزال في الشوارع ، على شكل وحول وحجارة . وحين اقتربنا من القبو ، كانت ملامح فادي قد بدأت بالتغيّر ، وبدا القلق على وجهه ، وحركات يديه . ولحظة وصولنا ، هرع في اتّجاه نوافذ القبو ، وكانت قريبة من مستوى الأرض ، وراح يتفحّصها ، ثم ركض إلى الدَّرَج ، فتبعته ، وأنا غير مدرك لسبب انقلاب مزاجه .

كانت المياه تغمر الفسحة ، أمام باب القبو ، فلم أرَ فادي ، إلا وقد هبط الدَّرَج دون أن يعبأ بشيء ، حتى غمرته المياه إلى بطنه . وحين فتح الباب بصعوبة بالغة ، اندفعت كميّة إضافيّة من الماء نحوه ، فتبعته غير عابىء بشيء ، وأنا أراه يلج إلى الداخل خائضًا في المياه المسودَّة . كانت مياه الأمطار ، وما جلبته معها من طين ، وأوحال ، قد ملأت القبو ، وأتلفت المخطوطات والكتب ، وانتشرت صفحاتها المشبعة على سطح المياة العكرة ، فبدأ فادي بالبكاء والعويل ، وهو يلتقط الصفحات التي حال الحبر عنها ، وأصبحت مجرّد أوراق قديمة مبتلّة . ولم أجد نفسي ، إلا وأنا أشارك فادي البكاء ؛ فاجتمع

الجيران أعلى الدَّرَج ، وبدؤوا ينادون علينا ، ونحن لا نردّ . ولم نصعد إليهم ، إلا حين سمعنا صوت سيّارة الإسعاف ، وكنّا في حالة مزرية للغاية ؛ جرّاء الصدمة ، والبلل ، والبرد!

استضافنا أحد الجيران ، ريثما جفّت ثيابنا ، وروى لفادي كم حاول الاتصال به ، حين بدأت السيول تقتحم المنطقة . وقال : إنه لم يكن يعلم بوجود الكتب ؛ بل ظنّ علب الكرتون التي أحضرها فادي ، قبل فترة وجيزة ، مجرّد علب لأشياء عديمة القيمة!

لم يعلّق فادي على ثرثرات جاره التي لم تتوقّف ، واكتفى بشكره على تجفيف الثياب ، ثم عدنا إلى دمشق ، مكسورين مصدومين ، من هول ما حدث .

كانت مصيبة فادي فوق أيّ تصور ؛ فقرَّر العودة إلى حلب محاولًا أن ينسى ما حدث ، وطلب من أحد تجّار الكتب القديمة أن يحاول إنقاذ ما يمكنه إنقاذه . أما أنا فتركت رسالة الدكتوراه مؤقتًا ، وعكفت على ترجمة المخطوطة السريانيّة إلى العربيّة ، وتحقيقها ، وتقديمها ، بشكل يليق بها .

وكم كانت دهشتي كبيرة ، وفرحتي غامرة ، وأنا أطابق بين الوقائع والشخصيّات الواردة ، في تاريخ أوغسطا ، وغيره من المراجع اللاتينيّة القديمة ، وبين صورة المخطوطة التي بين يديّ ، فأيقنت أن كاتبها على دراية كبيرة بما كان يكتب ، وهو ، كما يخبرنا النص ، تدمريّ يدعى حنبل بن جرم اللات ، أو

أنيبالوس بن جيراموس ، بحسب الصيغة اليونانيّة للاسم ، ومن الواضح أنه كان من الأسرى التدمريّين الذين اقتادهم أورليانوس معه ، إلى روما ، حين هزم زنوبيّا في العام ٢٧٣ للميلاد .

استفاد هذا العمل من مراجع كثيرة ربما أهمها :

- تاريخ شعب أوغسطا اللاتيني
- حياة أفلوطين لبورفيريوس
- حياة إزيدور لدماسكيوس
- الإلهة السورية للوقيانوس
- تاريخ الرسل والملوك للطبري

صدر للمؤلف

- (قطط أخرى) قصص دمشق دار الينابيع عام ١٩٩٣ .
- السينما الفلسطينية الجديدة (دراسة) دمشق - القدس عام ١٩٩٤ .
- دليل الفيلم الفلسطيني . . إصدارات مهرجان الشاشة العربية المستقلة ٢٠٠١ .
- صورة الجولان في التراث الجغرافي العربي الإسلامي (جغرافيا تاريخية) دار قدمس دمشق ٢٠٠٤ .
- عجوز البحيرة (رواية) دار كنعان دمشق ٢٠٠٤ .
- الجولان في مصادر التأريخ العربي ، دار كنعان دمشق ٢٠٠٥ .
- الكتاب العزيزي في المسالك والممالك للمهلبي ، جمع وتحقيق ، دار التكوين دمشق ٢٠٠٥ .
- استكشاف الجولان ، دار التكوين ، دمشق ٢٠٠٥ .
- وثائق عثمانية حول الجولان ، دار التكوين ، دمشق ٢٠٠٦ .
- المسيح في الجولان ، بالاشتراك مع عز الدين سطاس ، دار كنعان ، دمشق ٢٠٠٦ .
- الجولان الرائع ، صور قديمة ، منشورات جريدة الجولان ، القنيطرة ٢٠٠٧ .

- المرجع في الجولان ، مركز الشرق للدراسات ، دمشق ٢٠٠٧ .
- الجولان المصور ، مركز الشرق للدراسات ، دمشق ٢٠٠٧ .
- رجم الهري وحضارة الدوائر الغامضة ، منشورات جريدة الجولان ٢٠٠٧ .
- كنيسة العرب المنسية ، أديرة الغساسنة في دمشق والجولان وحوران ولبنان ، دار التكوين دمشق ٢٠٠٨ .
- رحلة حمود البوسعيدي ، تحقيق ، دار التكوين دمشق ٢٠٠٩ .
- رحلة نقولا سيوفي ، تحقيق ، دار التكوين دمشق ٢٠٠٩ .
- دفاتر الكتف المائلة ، رواية دار الينابيع دمشق عام ١٩٩٦ ، وطبعة ثانية ، دار التكوين ٢٠١٠ .
- رحلة محمد سعيد الزعيم وعبد الحميد شومان ، تحقيق ، دار التكوين ٢٠١٠ .
- رحلتان إلى الحجاز ونجد ، تحقيق ، دار التكوين ٢٠١٠ .
- موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين في ثمانية مجلدات ، دار كنعان ، بالتعاون مع مديرية الثقافة في عجمان ٢٠١٠ .
- رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحري ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٣ .
- موفيالا ، رواية ، دار فضاءات ، عمان ٢٠١٣ .

- وثائق الفتح الصلاحي لبيت المقدس ، دائرة الثقافة في الشارقة ، ٢٠١٤ .
- ألغاز مليحة ، دراسة في الآثار والنقوش والرموز ، دائرة الثقافة في الشارقة ، ٢٠١٥ .
- الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية ، منشورات الحملة الأهلية لاحتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية ٢٠٠٩ ، وطبعة ثانية دار التكوين ٢٠١٦ .

NOVEL

مذبحة الفلاسفة

كانت مذبحة للفلاسفة إذن، أراد أورليانوس أن تصل أصداؤها إلى أقصى أطراف الإمبراطوريّة لغاية في نفسه! والحقّ أنّني، وحتّى هذه اللحظة بعد السنوات الّتي زادت على الثلاثين من وقوع تلك المأساة، لم أدرك السرّ الّذي وقف وراء ذلك الحدث غير المسبوق، ولم أفهم لماذا وقعت تلك المذبحة المروّعة، وما الّذي دفع الإمبراطور لاقتراف ذلك الفعل الشائن الشنيع بحقّ فلاسفة سلاحهم الكلام، والكلام فقط؟!

ISBN 978-614-419-643-4